روايات جائزة نوبل

8

روايـــات جائـــزة نـوبــــل

سلسلة تصدرها

الـدار المصرية اللبنـانية

المـديـــر العـــام : **محمد رشـــاد**

رئيـس التحريـــر : **فتحـى العشرى**

الإعداد والصياغة : **محمد فتحــى**

---

١٦ شارع عبد الخالق ثروت ـ القاهرة

تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣

فاكس . ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو

ص . ب . ٢٠٢٢ ـ القاهرة

رقم الإيداع : ٥٨٢٣/ ٩٧

الترقيم الدولى : 0 - 358 - 270 - 977

الطبعة الأولى : محرم ١٤١٨ هـ ـ مايـو ١٩٩٧م .

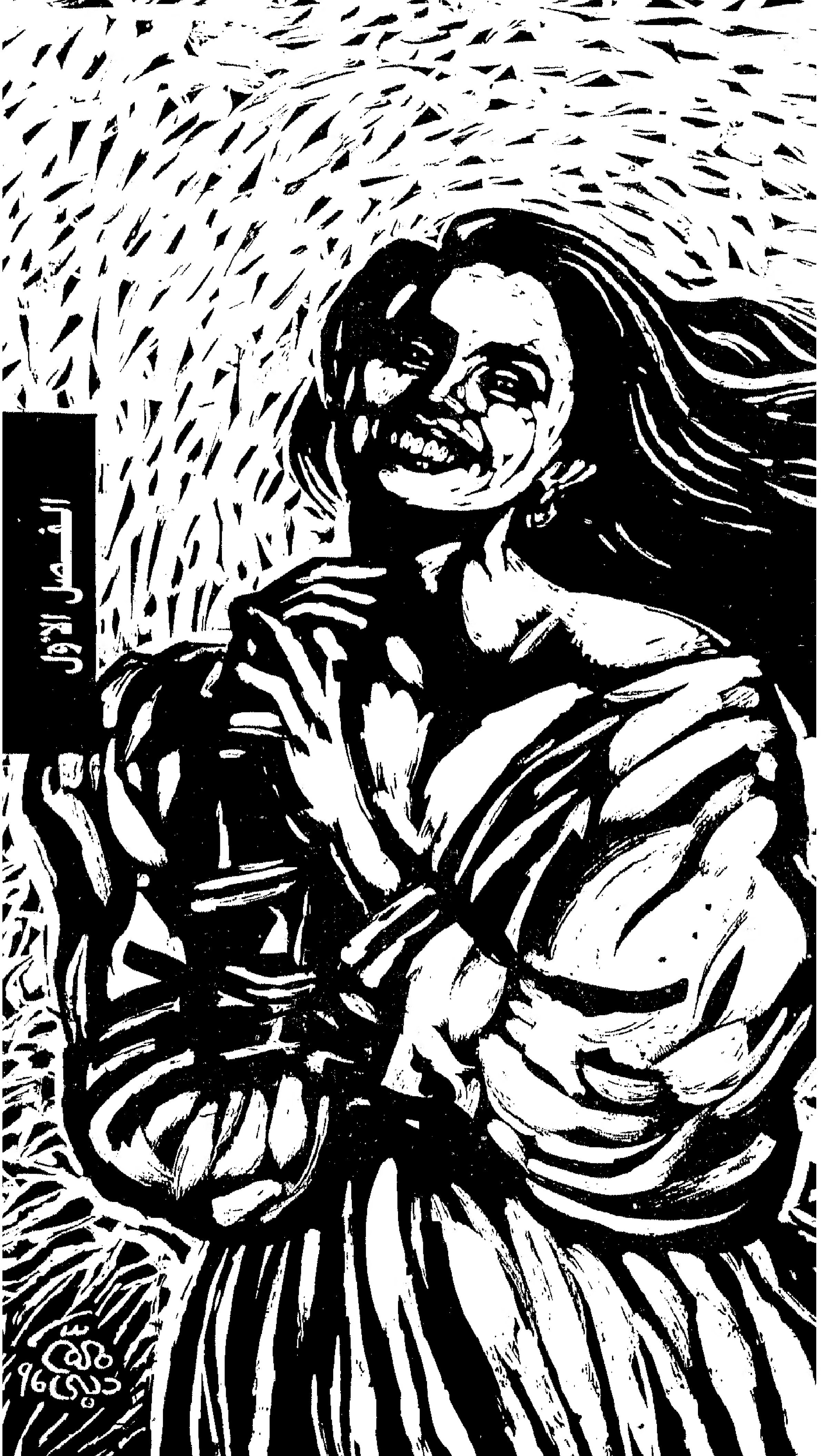
أنطوانيت

ANTOINETTE

رومـــان رولان

نوبل عام / 1915

ترجمة فتحي العشرى


الفصل الأول

1

أسرة آل جنان من تلك الاسر الفرنسية العريقة ، استقرت منذ قرون فى منطقة ريفية لم تعرف الغزو الاجنبى . . وفى فرنسا توجد آسر عديدة من هذه النوعية ، برغم مااستجد من تغيرات على المجتمع . . وهى اسر تحتاج الى انقلاب خطير حتى يتم انتزاعها من تلك الأرض التى ترتبط بها بروابط عميقة لا تدرى كمها . . ولا دخل للمنطق فى هذه الروابط ، ولا دخل ايضا للمصالح الا فيما تدر . . اما العواطف التى تثيرها الذكريات التاريخية فلا آهمية لها الا عند بعض الأدباء . . وأما مايوطد تلك الروابط القديمة التى لاتهون ، فهو الشعور الغامض العارم المشترك بين أذكى الناس وأبسطهم ، بأنهم منذ قديم الزمان قطعة من هذه والارض ، يحيونها ويتنسمون هواها ويسمعون دقات قلبها مع قلوبهم . كأن الناس والارض شخصان متجاوران على مهد واحد ، يشعران بالخلجان الخفية ويحسان بأدق الفواصل بين الساعات والفصول والايام المشرقة والمعتمة على حد سواء ، وكذلك اصوات الأشياء وصمتها ، فأجمل البلاد وأسعدها ليست تلك التى تأسر القلوب دونا عن سواها ، ولكنها البلاد الأقرب الى البساطة والتواضع ، تقترب من الانسان وتحادثه بلغة الود والألفة .

هكذا كانت تلك البقعة فى وسط فرنسا حيث عاشت أسرة آل جنان : أرض مستوية ، رطبة ، ومدينة قديمة ناعسة ، يرى شكلها الناعس وقد

انعكس على مياه القناة الراكدة الأسنة ، وحولها حقول ممتدة ومراع محروثة وجداول ماء وغابات كثيفة . . فلا منظر جذاب ولا بناء قديم ولا تذكارات ، لا شىء على الاطلاق يجذب الانسان ، فكل شىء انما يربط الانسان فحسب . . ولكن ثمة قوة خفية تكمن فى هذا الفتور وذلك الخمود ، فاذا تذوقها الانسان مرة لابد وأن يعانى فيها وأن يثور عليها . أما الانسان الذى يتطبع بطباعها لفترات طويلة فلا يمكنه أن يفصل عنها ، فقد امتلأ بروحها ، بهذا السكون السائد ، وهذا السأم المنتظم ، وهذه الرقابة المملة ، وكلها اشياء ذات جاذبية خاصة ومتعة لا حدود لها ، وان لم يدرك الانسان مداها ، فهو يسخر منها ولكنه يحبها فى الوقت نفسه ولايمكن أن ينساها .

عاش آل جنان حياتهم فى هذا البلد ، ويستطيع الانسان أن يتتبع تاريخها فى المدينة وضواحيها والذى يعود الى القرن السادس عشر ، عن طريق واحد من شيوخ العائلة - وهو مايحدث كثيرا - كرس وقته لاعداد نسب السلالة ، فهم أشخاص مغمورين وان كانوا مجدين ، وهم فلاحون ومزارعون وحرفيون وكتبة وموثقون ، وهم من الريف استقروا فى نهاية المطاف فى مركز من مراكز المقاطعة ، وفيه أخذ أوجستان جنان والد جنان الحالى يزاول عمله كصيرفى بحكمة بالغة ، كان رجلا ماهرا ماكرا صبورا كالفلاحين وكان فاضلا دون ان يكون متزمتا ، نشطا فى عمله مرنا مع الحياة ، أوصله مكره وصراحته وثروته الى ان يكون محترما له هيبته فى المنطقة التى تمتد عشرة فراسخ حول المركز ، كان قصيرا مكتنزا مفتول العضلات ، له عينان تشع منهما الحيوية ووجه أحمر ضخم تبدو عليه آثار الجديرى ، وكان الناس فيما مضى يتحدثون عنه كشاب يتعقب الحسان وان لم يفقد هذه العادة بعد ، كان يحب المرح بما فيه من اباحية ويحب الطعام الشهى أيضا . . فعلى المائدة كثيرا

مايواجه ابنه انطوان وهو يتحداه فى الاكل والمرح ومعهم بعض الاصدقاء القدامى مثل القاضى والموثق وكبير كهنة الكنيسة ، وكان جنان العجوز لا يتورع عن التهكم على القساوسة ، كما كان فى استطاعته ان يجلس معهم على مائدة الطعام اذا كانوا ممن يأكلون بشراهة كأشخاص أقوياء البنية من طراز سكان رابلية حيث يتلاحق شرر الفكاهة الجرىء على المائدة ، وضربات أيدى وضحك وصخب ، وكان صدى ذلك المرح يصل الى الخدم فى المطبخ والى الجيران فى الشارع فيشتركون فيه جميعا .

أصيب أوجستان العجوز بذبحة صدرية فى يوم من أيام الصيف الشديد الحرارة عندما شرع فى النزول الى قبو المنزل بعد أن شمر ساعديه ليعبىء النبيذ فى زجاجات وبعد أربع وعشرين ساعة كان قد انتقل الى العالم الآخر الذى لم يكن يحسب حسابه على الاطلاق ، رحل مزودا بكل اقداس الكنيسة مثل أى بورجوازى ريفى أصيل مؤمن بأفكار فولتير يستسلم للسر المقدس فى آخر لحظة حتى لاتضايقه النساء ، لأن الأمر سيان لديه ولأنه لم يكن يستطيع ان يجزم بما سيحدث بعد ذلك .

وتولى ابنه انطوان اعماله ، كان قصيرا بدينا احمر الوجه ، سمح الاسارير، حليق الذقن ، مرسل الشعر على الخدين . . وكان متسرعا فى حديثه متلعثما ، كثير الجلبتة ، يبالغ فى الاشارات القصيرة المليئة بالحيوية ، ولم يكن يتمتع بذكات أبيه فى الشئون المالية ولكنه كان نابها فى ادارة الأعمال ، اذ لم يكن عليه الا ان يتابع فى هدؤ المشروعات التى بدأت ثم أخذت فى النمو مع مرور الزمن . وقد اكتسب فى المركز شهرة رجال الأعمال ، وان لم يكن له فضل فى نجاح تلك الأعمال ، فهو لايساهم بخير الجد والانتظام .

كان شريفا كل الشرف وكان يبعث فى كل مكان شعورا بالتقدير وهو جدير به وكلنت معاملته للناس تتميز باللطف وعدم الالتواء ، بل فيها كثير

من عدم الحيطة والكلفة ولأن تعامله كان يعبر عن مشاعره الطبيعية فقد تمتع بحب الناس بما يبشر بالخير ، سواء فى مدينته او فى القرى المحيطة . . صحيح انه لم يكن مبذرا ، الا أنه كان يتمتع بشعور فياض ، تتروق عيناه بالدموع فى يسر ويثيره مشهد البؤس اثارة صادقة تدعو البائس نفسه الى التأثر .

كانت السياسة تشغل تفكيره تماما ، مثل معظم رجال المدينة الصغيرة ، وكان جمهوريا معتدلا ، شديد الحماس فى اعتداله ، حرا شديد التمسك بحريته ، وطنيا يكره رجال الدين مثل أبيه كراهية شديدة كان عضوا بالمجلس البلدى يسعده ويسعد زملاءه أن يقوموا بعمل مضحك ضد قسيس القرية أو واعظ الصيام الذى كان يثير الحماس بدرجة كبيرة بين النساء المدينة . علما بأن هذه الكراهية لرجال الدين فى المدن الفرنسية الصغيرة كان دائما من أسباب الخلافات العائلية التى تتمثل فى العراك الصامت العنيف بين الازواج والزوجات ، وهو عراك لايخلو منه أى بيت .

كان انطوان جنان يدعى الموهبة الادبية وكان كأبناء الريف من جيله ينهل من الأدب اللاتينى الكلاسيكى الذى كان يحفظ منه عن ظهر قلب بعض الصفحات وكثيرا من أمثال لافونتين ويوالو خاصة . والمعروف أن يوالو هو صاحب كتاب الفن الشعرى ، وكتاب اللوتران . كما كان يحفظ لفولتير مؤلف « العذراء » ولصغار الشعراء فى القرن الثامن عشر . وأخذ يجتهد فى أن ينظم الشعر على منوالهم . ولم يكن هو الوحيد بين معارفه ممن استهوتهم هذه المسألة التى ازدادت بها شهرته فكانت تروى عنه فكاهات شعرية ورباعيات ومقطوعات وشعر هجائي وأغن بعضها جرىء ، لاتنقصها روح المرح . ولم يفته كذلك أ يتحث عن أسرار الطعام الشهى على طريقة دانتى الشهير .

هذا الرجل القصير القوى ،المرح ، النشط ، تزوج من فتاة ذات طباع تخالف طباعه تماما ، هى ابنة قاضى البلدة واسمها لوسى دى فيليه . وآل دى فيليه أو دفيليه فقد كان الاسم مشطورًا على مرّ الأيام ، كما تنشطر الحصاة بعد وقوعها ، كانوا قضاة كابرا عن كابر وهم ينتمون الى الجنس القديم فى العنصر البرلمانى الفرنسى ممن كانت لديهم فكرة رفيعة عن القانون والواجب وآداب اللياقة الاجتماعية ، كما كانوا يتمسكون بالكرامة الشخصية ولاسيما المهنية ، محصنين بنزاهة مطلقة على طريقة برودوم . وفى القرن الماضى كانوا قد اتصلوا بمذهب الجانسينزم الثورى فورثوا عنه ذلك الشعور بالاحتقار للعقلية الجزويتية الى شىء من التشاؤم وقليل من التذمر فى الوقت نفسه – لم يروا الحياة على صورتها الجميلة وبدلا من أن يسووا مشكلاتهم التى كانت تصادفهم كانوا على استعداد لاضافة مشاكل أخرى اليها حتى تحق لهم الشكوى . وكانت للوسى دى فيليه بعض هذه الطباع بينما كان زوجها على عكس ذلك متفائلا دون أن يكو مسرفا فى تفاؤله . كانت ممشوقة القوام تزيد عليه طولا بمقدار الرأس ، نحيفة القد ، تعرف كيف تختار ملابسها بأناقة وان كانت غير مكتملة حتى تظهر دائما وعمدا أكبر سنا من حقيقتها . كانت ذات فضائل أخلاقية عالية ولكنها كانت صارمة مع الناس فلم تكن تتسامح فى الخطأ الواحد ولا فى أيسر انحراف ، مماجعل الناس يعتقدون فيها البرود والازدراء ، كانت ورعة للغاية ، وكان هذا الورع سببا فى المناقشات المتصلة بين الزوجين ومع ذلك كانا متحابين ، ومهما حدث بينهما من نزاع لم يكن أحدهما يستغنى عن الآخر . . لأن أحدهما لم يكن أكثر واقعية من الأخر . أما هو فكانت تنقض الخبرة بنفوس الناس ، فهو يعرض نفسه لخداع دائم أمام الوجوه الطيبة والكلمات المعسولة ، أما هى فكانت تنقصها الخبرة في شئون الاعمال ؛ فقد ظلت بعيدة عنها ولم تهتم بها .

كان لهما طفلان ، فتاة تسمى أنطوانييت وصبى يسمى اوليفييه . كانت أنطوانييت تكبر أخاها بخمس سنوات .

كانت أنطوانييت جميلة سمراء ، ذات وجه مستدير فرنسى رشيق ، فى ملامحها براءة ، لها عينان تشع منها الحيوية وجبهة ناتئه وذقن دقيق وأنف صغير مستقيم كذلك الذى قال عنه مصور فرنسى قديم « من تلك الأنوف الحادة النبيلة المتناهية الجمال ، به خلجة طفيفة لاتكاد ترى ، تعطى ملامحها حيويه وتدل على الحركات التى تدور فى نفسها عندما تنصت ، وكانت تدين لأبيها بالمرح وعدم الاكتراث .

أما أوليفييه فكان أشقرا رقيقا ، قصير القامة كأبيه وان كانت طبيعته تختلف عنه تماما ، تعرض أثناء طفولته لأمراض شديدة مستمرة ، وبالرغم من أن هذا جعله مدللا فان ضعفه الجسمانى جعله وهوى فى سن مبكرة صبيا خياليا يميل الى الحزن قليلا ، كما جعله يخاف الموت ، لاسلاح له فى الحياة ، يظل وحيدا ميالا للوحشه والانفراد ، يهرب من تجمع الأطفال ، اذ كان يشعر بعدم الارتياح معهم كان يكره لعبهم وشجارهم ويشمئز من عنفهم ويدعهم يضربونه لا لنقص فى شجاعته ولكن بسبب الخجل اذ كان يخشى الدفاع عن نفسه كما يخشى ان يؤذى أحدا . ولولا انه كان يحتمى بمكانة أبيه لعانى من زملائه كثيرا .

كان رقيقا حساسا مرهفا بشكل مرضى ، فأى كلمة أو لمحة عطف أوعتاب توجه اليه كفيلة بأن تجعله يجهش بالبكاء ، مما دعا أخته الاكثر صحة أن تسخر منه وتلقبه بالنافورة الصغيرة .

كان الطفلان متحابني من كل قلبيهما ، ولكن الاختلاف الواضح فى طبعهما كان يجعل من الصعب عليهما العيش معا . كان كل منهما يسير فى

اتجاه وراء أحلامه وخياله أنطوانييت كانت تزداد جمالا كلما كبرت ، تعرف ذلك وتسمعه بأذنيها ولهذا كانت سعيدة ، أخذت تنسج لنفسها روايات عن المستقبل . أملا أولفييه النحيل الحزين فكان يشعر فى قراءة نفسه بأن المجتمع يخدشه كلما اتصل به ، لذا كان يلجأ الى عقله الصغير المحدود يقص لنفسه شتى القصص ، وكان فى حاجة انثوية ملحة الى أن يكون محبا ومحبوبا . وبما أنه كان يعيش وحيدا بعيدا عن أولئك الذين فى سنه فقد اصطنع صديقين أو ثلاثة أسمى الاول جان والثانى ايتيين والثالث فرنسوا . كان دائما معهم وغائب الذهن عمن حوله . وفى الصباح عندما كانوا ينتزعونه من فراشه كان ينسى نفسه تاركا ساقيه الصغيرتين العاريتين متدليتين من السرير . وأحيانا كثيرة كان يرتدى جوربين فى ساق واحدة ، بل كان ينسى يديه فى صحن الماء وينسى نفسه على مائدة العمل وهو يكتب أو يتعلم درسا . فيستسلم للأحلام لساعات ، ثم يلاحظ فزعا وفجأة أنه لم يتعلم شيئا بعد . وفى العشاء كان يتصل حين يوجه اليه الكلام ، فيجيب بعد دقيقتين من توجيه السؤال ويتوقف وسط عبارته وقد نسى مايريد أن يقول . كان ينكمش منصتا لهمس أفكاره مستسلما للأحاسيس التى كانت تملأ أيام الريف الرتيبة التى تنساب فى بطء ، فكان يفكر فى البيت الكبير الذى كانوا يسكنون جزءا منه تاركين جزءا منه تاركين نصفه خاليا ، ويفكر فى الأقبية ومخازن الحبوب الضخمة المخيفة ، وفى الغرف المقفولة المبهمة ومصاريع النوافذ المغلقة والأثاث المغطى ،وفى المرايا والشمعدانات الملفوفة، وفى الصور العائلية القديمة ذات الابتسامات التقليدية ، من لوحات العهد الامبراطورى التى تمثل البطولة الفاضلة والاباحية مثل السيبياد وسقراط عند المحظية ومثل أنطواخومس وستداتونيس ، ومثل قصة ايبامينونداس وبليزير الشحاذ . . وفى الخارج كان يفكر فى صوت الحداد

يعمل فى الورشة المواجهة ورقصة المكارم العرجاء على السندان وصوت لهث المنفاخ الضعيف ورائحة القرن المحروق ،ثم صوت مكارم الغسالات الجالسات القرفصاء على شاطىء الماء وصوت الضربات الخافتة من سكين الجزار فى البيت المجاور وخطوة حصان تدق على أرض الشارع المبلطة ، وصرير الطلمبة والكوبرى وهو يدور على القناة والمراكب الثقيلة المحملة بأكوام الخشب وهى تمر بهدؤ تجر بالحبال ،كل ذلك أمام الحديقة المرتفعة وفنائها الصغير المبلط الذى كان به حوض مربع من الطين حيث تنمو زنبقتان وسط زهور القرنفل والبيتونيا ومجموعاتا الغار والرمان المزهرة الموضوعة فى صناديق على شرفه تعلو القناة . وأحيانا تسمع ضوضاء السوق فى الميدان المجاور ، الفلاحون بقمصانهم الزرقاء اللامعة والخنازير الصائحة. وفى يوم الأحد فى الكنيسة كان السماسى يترنم بنغمات نشاذ وكان القسيس العجوز ينام وهو يرتل القداس . وطريق المحطة حيث النزهة العائلية وهم يقضون الوقت فى تبادل التحيات برفع القبعات مع آخرين ممن كانوا يعتقدون أنهم ملزمون بالتنزه معهم حتى يصلوا الى الحقول المشمسة التى تهتز فيها القنابر وترتعش الاشجار المتراصة على الجانبين بطول مياه القناة البراقة الراكدة . ثم هذه العلائم الكبيرة والأكلات التى لا تنتهى حيث يدور الحديث حول مسائل الاكل بتلذذ لأنهم جميعا كانوا خبراء فى فن الطعام ولأن الشراهة فى الريف هى الشغل الشاغل . وكانوا يتكلمو ن ايضا عن الأعمال وعن الموضوعات المرحة وعن الامراض بتفاصيل لانهاية لها ، كان الصبى الصغير وهو جالس فى ركنه لايسمع له صوت اكثر من صوت فأر صغير يقرقط ولايأكل وإنما ينصت بكل أذنيه ، لايفوته شيء وكان خياله يعينه اذا مافاته شيء من الحديث . كان يملك موهبة فريدة تجعله يفكر فيما لم يخطر بباله من قبل وربما لم يفهمه ، وهذه الموهبة يمتاز بها معظم أبناء

العائلات العريقة حيث انطبعت فى أذهانهم آثار قرون من الزمان وكانت تدور فى المطبخ عمليات غامضة لذيذة ودموية. ثم الخادممة العجوز التى كانت تروى الحكايات الهزلية والمفزعة ، وأخيرا كان الليل بالخفافيش الصامتة والفزع من الأشباح المخيفة التى كان يعلم أنها تتزاحم وتضطرب فى باطن البيت العتيق كالفئران الكبيرة ، والعنكبوت الضخم ، وأيضا الصلاة بجانب الفراش وهو لايسمع ماتتمتم به شفتاه . وكذلك صوت جرس المستوصف المتقطع المجاور للبيت وهو يعلن بدقاته ساعة النوم للراهبات ، والسرير الأبيض جزيرة الأحلام .

كانت أروع أوقات السنة هى تلك التى يقضونها فى ضيعة العائلة على بعد فراسخ من المدينة فى الربيع والخريف ، وهناك ، حيث لايرى أحد ، يستطيع الانسان أن يحلم كما يشاء ، وكما هو الحال بالنسبة لمعظم البرجوازين الصغار فقد حيل بين الطفلين وبين العامة من الناس كالخدم والمزارعين ، أولئك الذين كان يشعر الطفلان نحوهم فى الحقيقة بشىء من الخوف والاشمئزاز ، ولقد أخذا عن أمهما احتقارا أرستقراطيا أو بعبارة . . أدق برجوازيا بالذات ، احتقارا لا ولئك الذين يعملون بأيديهم ، كان أوليفييه يقضى طيلة أيامه قابعا فى فروع شجرة من أشجار الفريق يقرأ القصص الساحرة مثل الاساطير القديمة الأخاذه وحكايات موزيبيوس أو مدام دولنواى أو الف ليلة وليلة أو روايات الرحلات لانه كان يتوق الى معرفة الاقطار البعيدة . أحلام تسبح فى المحيطات كتلك التى . . تأسر القلوب للصبية فى المدن الصغيرة داخل القاطعات الفرنسية . كانت مجموعة الشجيرات الملتفة تخفى عنه المنزل ، فكان يمكنه الإعتقاد بأنه ابتعد ، مع أنه كان يعرف قربه ، ولهذا كان راضيا لأنه لم يكن يحب الابتعاد وحده كثيرا ، فقد كان يشعر اذا ما ابتعد أنه فقد فن الطبيعة . كانت الأشجار تتماوج

حوله ، وبين اوراق الشجر المتجمعة كأعشاش الطيور ، وكان يرى على بعد الكرامات المصفرة والمراعى الطبيعية حيث ترعى الأبقار المبرقشة التى يملؤ صياحها البطىء صمت الساكن ، وكانت أصوات الديكة الثاقبة تتردد من مزرعة لأخرى ، كانت تسمع الات ضرب القمح فى الأجران تتكرر فى غير انتظام . وفى وسط هذا السكون الشامل كان هناك فيض متصل من حياة محمومة لالأف وآلاف من الكائنات الحية . وكان أوليفييه يلاحظ بعين قلقة طوابير النمل التى تسير فى سرعة دائمة وجموع النحل ذات الطنين الذى يشبه صوت الأرغن وقد أنقلت بالغنيمة التى أتت به من رحيق الزهور ، والزنابير الجميلة البلهاء التى لاتعرف ماذا تريد . كان يراقب عالم الحشرات المشغولة التى تبدو وكأن بها رغبة ملحة فى أن تصل الى مكان ما . . ولكن أين ذلك المكان ؟ انها لاتعرف لنفسها هدفا فهى أن تصل الى مكان ما . . ولكن أين ذلك المكان ؟ انها لاتعرف لنفسها هدفا فهى غير مبالية بذلك . ويرتعد أوليفييه وسط هذا العالم المعادى الذى لايبصر ماحوله. يرتعد كالخرنقة لصوت ثمرة تسقط من شجرة صنوبر او لفرع شجرة جاف ينكسر . وكان يهدىء من روعة سماعة صوت حلقات الأرجوحة حيث تتأرجح أنطوانييت بعنف فى الطرف الاخر من الحديقة .

كانت أنطوانييت تحلم هى الأخرى على طريقتها : كانت تقضى تقضى طوال اليوم فى الحديقة باحثة فى كل مكان ، تأكل من كل شىء وتستطلع كل شىء ، تضحك وتلتقط حبات العنب وكأنها عصفور وتنزع الخوخ من عريشته فى خفية تتسلق شجر البرقوق تارة أو تخبط عليه وهى تمر خبطات خفيفة خفية ليتساقط منه الثمر الذهبى كالمطر ، يذوب فى الفم كشهد معطر ، أوكانت تقطف الأزهار رغم أن ذلك ممنوعا وهى تسرع فتنتزع وردة كانت ترغبها منذ الصباح وتخلص بها الى الكشك فى طرف الحديقة ، وهناك

تدفن أنفها الصغير بمتعة فى الوردة وتقبلها ، ثم تخفيها شيئا فشيئا فى صدرها . وكانت لها هواية أخرى حلوة لكنها محرمة ، هى أن تخلع حذاءها وجواربها وتسير حافية القدمين ، على الرمل الطرب ، الممرات وعلى الحشائش المبللة فى الأرض المخضرة وعلى الطوب المثلج فى الظل أو الحارق فى الشمس ، أو تسير فى الغدير الصغير الذى ينساب على حافة الخميلة ، حيث تمس بقدميها وساقيها وركبتيها الماء والارض والضوء ، وكانت تنظر الى يديها الشفافتين فى ضوء الشمس وهى مستلقية فى ظل شجر الصنوبر وتمر بشفتيها على ذراعيها الرقيقيتين الممتلئتين الناعمتى الملمس كأنها الحرير . وكانت تصنع تيجانا وعقودا وفساتين من أوراق شجر اللبلاب وأوراق شجر البلوط ، وكانت ترتشقه بالمسك الازرق ، وأشواك الفنيت الحمراء وأغصان الصنوبر الصغيرة بثمارها الخضراء ، فكانت تبدو كأميرة صغيرة متوحشة ، وكانت ترقص بمفردها حول نافورة الماء فكانت تدور وتدور وذراعاها ممدودتان حتى يدور رأسها وحتى تسقط على الأرض المخضرة مخبئة وجهها فى الحشيش ضاحكة من كل قلبها مدة طويلة دون أن تستطيع مقاومة الضحك ودون أن تعرف ما الذى يضحكها .

وهكذا كانت تمر أيام الطفلين ، كانا علي بعد خطوات من بعضهما ولكن لايهتم أحدهما بالأخر إلا حين يحلو لأنطوانيت أثناء مرورها بأخيها أن تداعبه فتقذفه فى أنفه بقبضة من ورق الصنوبر الابرية أو تهز شجرته مهددة اياها بأن تسقطه من فوقها . أو تخيفه فتلقى بنفسها عليه وهى تصيح فجأة :

– هو ! هو ! . .

كانت تعتريها رغبة ملحة فى مشاكسته ، فتجعله يهبط من شجرته متظاهرة بأن أمه تناديه وحين يهبط تصعد مكانه ولاتتحرك على الاطلاق ،

وعندئذ يضجر أوليفييه ويهدد بالشكوى ، ومع هذا لم يكن هناك خوف من أن تبقى انطوانييت طويلا فوق الشجرة فهى لاتستطيع البقاء اكثر من دقيقتين فى راحة ، وبينما هى تستفزه على هواها حتى يوشك على البكاء تنزل مسرعة الى أسفل وترتمى عليه وتهزه ضاحكة وهى تناديه : « ياغبى ياصغير » ثم تطرحه على الارض وهى تحك أنفه بحفنة من الحشائش . يكافح أوليفييه قدر ما يستطيع دون قوة تساعده على الكفاح . وهنا يكف عن الحركة ويظل مستلقيا على ظهره كالجمل وقد سمرت ذراعاه النحيليتان على الحشائش بيدى أنطوانييت الصغيرتين القويتين وهو يتخذ مظهرا مؤثرا بائسا مستسلما . ولكن أنطوانيت لا تستطيع المقاومة ، وهى تنظر اليه وقد غلب على أمره وأعلن الاستسلام ، فتنفجر ضاحكة وهى تعانقة فجأة ثم تتركه بعد أن تضع فى فمه كأنها تودعه قطعة صغيرة من الحشائش الطازجة ، وقد كان يكره هذا تماما لانه يدعوه للاشمئزاز فيبصقه ويمسح فمه ويحتج ساخطا بينما تهرب هى ضاحكة وقد أطلقت ساقيها للريح .

كانت أنطوانيت تضحك دائما . تضحك حتى وهى نائمة اثناء الليل ، وكان أوليفييه ينام فى الغرفة المجاورة أرقاً يرتعد من القصص التى يقصها لنفسه وهو يسمع الضحكات الصاخبة والكلمات المتقطعة التى كانت تنطق بها فى صمت الليل . وفى الخارج كانت الأشجار تكاد تتكسر تحت هبوب الريح بينما البومة تنعق والكلاب تنبح فى القرى بعيدا وفى المزارع على الريح ، وكان أوليفييه يرى فى ضوء الليل الخافت ، وأطراف الخمائل أغصان الصنوبر الثقيلة المعتمة تتحرك أمام نافذته كالأشباح وكن ضحك أنطوانيت يخفف مايعتريه من خوف .

كان الطفلان متدينين حقا خاصة أوليفييه ، وكان والدهما يصدمها بعقائده المنافيه للدين ولكنه كان يتركهما أحرارا ، فقد كان فى الحقيقة لمعظم

البورجوازيين غير المتدينين لايغضب من اعتقاد أسرته نيابة عنه ، لأنه كان حريصا على أن يكون على صلة طيبة بالأخرين ، فالمرء ليس على يقين مطلق من تحول الحظ . وعموما فقد كان مؤمنا بالله وكان يحتفظ لنفسه بحق احضار القسيس فى الوقت المناسب كما فعل أبوه ، فاذا كان ذلك لن يفيده فلا يمكن أن يلحق به ضررا . والمرء ليس فى حاجة للاعتقاد بانه سيحرق حتى يتخذ الامان ضد الحريق .

كان أوليفييه السقيم يميل إلى التصرف ، وكان يخيل إليه أحيانا انه غير موجود فى هذا العالم ، ولأنه كان سريع التصديق شديد الإحساس ، فقد كان فى حاجة الى دعامة تسنده . كان يجد فى الاعتراف لذة مشوبة بألم ، وكان عملا طيبا بالنسبةله أن يعتمد على الله الصديق الذى يستطيع أن يسر له بكل شىء ويغفر كل شىء ، كان يتذوق حلاوة الخضوع والحب حيث تخرج روحه نقية خالصة طاهرة مستريحة وكان الايمان بالله عنده شيئا طبيعيا لدرجة أنه لم يكن يفهم كيف يستطيع إنسان أن يشك . كان يعتقد أن الإنسان الذى يشك إما أن يتعمد بشك مرذول أو أن الله يعاقبه . كان يصلى لأبيه سرا ملتمسا له الرحمة حتى ينعم الله عليه بالايمان . وكم سر عندما زار كنيسة أحد الأقاليم سرا ملتمسا له الرحمة حتى ينعم الله عليه بالايمان . وكم سر عندما زار كنيسة أحد الأقاليم مع أبيه ذات يوم فرآه يرسم علامة الصليب . كانت قصص التاريخ المقدس تختلط عنده بالقصص الساحرة لروبيزهل وجراسيوز وبرسينيه وهارون الرشيد . فعندما كان صغيرا لم يشك فى صحة هذه القصص جميعا لما كان واثقا من معرفة سكاكاباك ذى الشفتين المشقوقتين والحلاق الثرثار والأحدب كاسجار ، وعندما كان يتنزه يبحث بعينيه فى الحقول عن كاتر البيك الأسود الذى يحمل فى منقاره الجذر السحرى للباحث عن الكنوز . فيبحث عن كنعان وأرض الميعاد التى

أصبحت بفضل خياله قرى مقاطعتى بورجونى والبيرى ، كان التل المستدير والشجرة الصغيرة على قمته كأنها ريشة قديمة يبدو له كالجبل الذى أقام عليه إبراهيم الكومة ، وهى مجموعة من الأعشاب الجافة على حافة بعض الأغصان ككومة متقدة اطفأها الزمن . وحين لم يعد أوليفييه صغيرا بعد أن بدأت حاسة النقد تستيقظ عنده كان يجد لذة فى أن يترك خياله يسبح له الخرافات الشعبية التى تتزين بها العقيدة الى درجة تجعله يصدقها وان لم يكن يصدقها تماما . ولهذا يترقب فى إيام السبت بلهفة عودة أجراس عيد الفصح التى خرجت إلى رومان يوم خميس العهد والتى ترجع أصداؤها فى الأجواء ومعها الأعلام الصغيرة . وتوصل أخيرًا إلى إدراك عدم حقيقة ذلك . ولكنه بعد أن يستمر قليلا يتطلع إلى السماء حينما يسمع الأجراس تدق . وقد صور له الوهم أنه رأى جرسا بشرائط زرقاء يختفى فوق المنزل وإن علم أن هذا غير ممكن .

كان فى حاجة ملحة إلى أن يسبح فى ذلك العالم حيث تمتزج الخرافة بالايمان ؛ ولهذا كان يهرب من الحياة ومن نفسه ،وكان يقاسى من كونه هكذا ، نحيلا ، شاحبا ، سقيما ، ولم يكن يحتمل أن يسمع الناس يقولون عنه ذلك .

كان يحمل فى دخيلة نفسه تشاؤما غريزيا يرجع أنه ورثه عن أمه ، ووجد التشاؤم أرضا خصبة فيه . ولم يكن يتبين ذلك معتقدا أن كل الناس مثله . وبدلا من أن يقضى وهو فى العاشرة أوقات راحته فى اللعب بالحديقة كل يقبع فى عرفته بعد غلقها يكتب وصيته وهو يتناول طعام بعد الظهر .

كان يكتب كثيرا ، وكان يمعن فى كتابة مذكراته كل مساء . خفية ، دون أن يدرى لذلك سببا ، فلم يكن لديه مايقوله سوى التفاهات . كانت الكتابة عادة وراثية يخضع لها برجوازيو الريف الفرنسى أو الجنس العتيق

الذى لايفنى والذى يظل ثابتا فى صبر أحمق يصل لها الاستبسال حتى وفاته . وهى مذكرات مفصلة عما رأى وسمع وفعل وشرب وأكل وفيما فكر ، يكتب لنفسه وليس لأحد ، فلن يقرأها أحد حتى هو نفسه .

كانت الموسيقى عنده كالإيمان ،.ملجأ يحتمى به مثلما يحتمى الإنسان من قيظ النهار . هو وأخته كانا موسيقيين بالطبيعة ، خاصة أوليفيه الذى يدين لأمه بهذه الموهبة وإن كان ذوق الأخ والأخت فى حاجة إلى تقويم ، إلا أن الضيعة لم يوجد بها من ينمى فيها هذا الذوق ، فالموسيقا تنحصر فى فرقة البلدة التى تعزف ألحانا عسكرية أو منوعات لأدولف آدم ، وفى صوت أرغن الكنيسة وهو يردد القصائد ، وفى غرف آنسات الطبقة البورجوازية أثناء تمريناتهن على البيانو ويضربن على آلات غير دقيقة بعض المقطوعات الفالس أو البولكا وافتتاحية خليفة بغداد أو هنرى الصغير فى الصيد واثنتين أو ثلاثا من سونتات موزار ، يكررنها وبالنشاز نفسه ، ضمن برنامج ساهر لا يتغير أبدا عند استقبال الزائرين وفى المنازل كان يطلب من الموهبين بعد العشاء إبراز مواهبهم ، فإذا تمنعوا خجلا استجابوا فى نهاية الأمر تحت رجاء المجموع ، فيعزفون أفضل مالديهم ؛ ليحصلون على إعجاب الحاضرين .

وهو حفل يتكرر فى كل سهرة ،وإن كان يفسد على الصغيرين لذة العشاء، خاصة عندما كان يطلب منهما أن يقدما معا بعزف مقطوعتها «رحلة فى الصين » لبازان أو ألحان ويبير القصيرة. كانت الثقة متبادلة بينهما؛ ولذلك لم يكن يخشيان هذه المواقف . وعندما يضطر أحدهما للعزف بمفرده يبدأ العذاب . ومع أن انطوانييت كانت الأشجع فإن ذلك يضايقها تماما رغم امتثالها للمأزق الذى لا مفر منه . تذهب إلى البيانو وتجلس بثقة وتبدأ بالروندو مسرعة تضطرب تارة ، وتارة تتوقف وتدير رأسها وهى تقول مبتسمة :

- أوه ، لم أعد أتذكر . .

ثم تستأنف بشجاعة تاركة جزءا من المقطوعة حتى تنهيها . لم تكن تخفى سرورها لانتهائها من العزف . وعندما كانت تعود إلى مكانها وسط التهانى والمديح تضحك قائلة :

- أكثرت من الأخطاء !

أما أوليفييه فكان أقل بساطة . كان لا يستطيع الظهور أمام الجمهور ولا أن يكون موضع انتباه جماعة ؛ إذْ يتألم لمجرد الكلام وسط الناس ؛ لذا كانت صعوبة أن يعزف أمام أشخاص لايحبون الموسيقا ، بل تضايقهم ، فهم يطالبون بالعزف لمجرد أنه عادة فقط ، وهو يرى فى ذلك ظلما طالما حاول أن يثور عليه ودون جدوى . كان يرفض بإصرار ويهرب فى بعض الليالى ، ويختبىء فى غرفة مظلمة أو أحد ممرات المنزل أوحتى فى حجرة المخزن رغم خوفه من العُنكبوت . وكانت مقاومته تزيد من الإلحاح مع شىء من السخرية ، وكان أهله يزجرونه ويؤنبونه ويصفعونه إذا لزم الأمر عندما تصل ثورته إلى حد الوقاحة . لم يحسن العزف وهو الذى يحب الموسيقا كثيرا . ولم تكن البلدة الصغيرة فى السابق على هذه الحال من الذوق الموسيقى المنحط . إذ أنهم يذكرون عهدا كانت تسمع فيه موسيقا لابأس بها عند اثنتين أو ثلاث من الأسر البورجوازية ، وكثيرا ماكانت تتكلم السيدة جنان عن جدها الذى كان يجر بحرارة قوس الكمان الكبير ، كما كان يغنى ألحانا من جلوك ووالبراك وبرتون . كان لايزال يوجد بالمنزل دفتر موسيقا كبير ومجموعة أوراق فيها ألحان إيطالية . فكان هذا العجوز المحبوب مثل اندريو الذىَ وصفه برليوز فقال « كان يحب جلوك جدا » يضيف بأسف وحسرة « وكان يحب جدا بتشينى أيضا » . كان العجوز يفضل بتشينى ، وعلى أية حال فإن عدد الألحان الإيطالية كانت تفوق بكثير الألحان الأخرى فى مجموعة الجد ، وقد

كانت كلها بمثابة الخبز الموسيقى لأوليفييه الصغير ، فكان غذاء غير كاف شبيها بالحلوى الرديئة التى تصنع فى الأرياف والتى يشبعون منها الأطفال ، فهى تضعف الذوق وتفسد المعدة وتهدد بإفساد الشهية إلى الأبدعن تذوق الطعام الجيد . ولايمكن اتهام أوليفييه بالشراهة ، فلم يكن يقدم له غذاء صحيح ، وكان يحرم من الخبز ويأكل الفطائر ، فأصبح سيماروزا وبيزيللو وروسينى أساتذة له هو الذى يميل إلى الكتابة والتصوف ، يسكره المشروب القوى الذى كان يقدم له بدلا من اللبن ، وهؤلاء الإساتذة الهزليون السفهاء كان تأثيرهم عليه مثل آلهة الإغريق القدماء وكذلك برجوليز وييللينى الرشيقتان من مدينتى نابل وكاتان بابتسامتيهما . . ودموعها الجميلة وهى تترقرق فى عينيهما .

كثيرا ماكان أوليفييه يعزف على انفراد ولنفسه . فقد كان متشبعا به مستسلما للذتها دون أن يفهم معنى ماكان يعزفه . لم يفكر أحد فى تلقينه دروسا فى الإيقاع ، ولم يهتم هو بذلك ، فالعائلة ـ وخاصة الأم ـ كانت خالية الذهن تماما عن كل مايتعلق بالعلوم أو بالتفكير العلمى ، فرجال القانون المحبون للفنون والآداب ـ وخاصة القديمة ـ كانوا لايفقهون شيئا فى مسألة حسابية ؛ ولذلك كانوا دائما مايذكرون أحد أفراد العائلة ـ رغم صلته البعيدة ـ كشخص خارق للعادة ؛ لأنه عمل فى مكتب الأرصاد ، وأصيب بالجنون نتيجة لهذا العمل . فالطبقة البورجوازية العتيقة فى الأقاليم تتمتع بعقل قوى واقعى أصابه الخمود ؛ لطول التفكير فى ذاته بحيث تسير الأيام على وتيرة واحدة ، وهى طبقة لها ثقة بالغة فى عقلها ، وثقتها به تبلغ حدا يجعلها تؤمن بأنه كفيل بحل أى مشكلة تعتريها مهما عظم شأنها .

والبورجوازية تعتقد أن رجال العلم ليسوا إلا نوعا من الفنانين ، فهم أكثر فائدة ، ولكنهم أقل شأنا . فالمعروف عن الفنانين أنهم لايفيدون فى

شىء وفى تكاسلهم شىء من الرقى ، على حين أن العلماء لايختلفون عن العمال ، يشتغلون بأيديهم ، وهذا ما يشينهم ، هم العمال ، هم أكثر الفنانين علما ، ولكنهم مختلفون قليلا ، تظهر قوتهم، على الورق ، ولكنهم إذا خرجوا عن نطاق أعدادهم لايعرفون شيئا ، لايمكنهم الوصول الى هدف أن لم يتول قيادتهم أهل الرشد ، هؤلاء يتمتعون بخبرة فى الحياة وفى الأعمال .

الطامة الكبرى عدم وجود مايؤكد أن هذه الخبرة بالحياة والأعمال تبلغ هذه المنزلة التى يتوهمها أهل الرشد ، وإنما هى الأخرى خبرة ممارسة تحل عددا يسيرا جدا من الحالات البسيطة ، فإذا ماحدث ظرف خارق يستلزم الجزم فى سرعة وعزم نجدهم مجردين من السلاح .

كان الصبر فى جنان من هذا النوع من الرجال ، وكانت الأمور تتكرر فى صورة لاتتغير داخل إطار الحياة الريفية ؛ ولذلك كان جنان على علم بما سيحدث ، فلا تقابله صعوبات حقيقية فى عمله ، فقد خلف أباه فى عمله كصير فى دون استعداد خاص للمهنة . ولم سارت الأمور على مايرام منذ بداية عمله فقد اعتقد أن الفخر يرجع إلى مواهبه الطبيعية ، فيقول : إن المرء يكفيه أن يكون نزيها مجدا وعاقلا حتى يقوم بهذا العمل ، وكان ينوى أن يورث ابنه هذا العمل دون أن يهتم بميوله مثلما فعل والده معه ، وإن كان لايعد أولاده ويتركهم يفعلون مايريدون ، شريطة أن يكونوا فضلاء وسعداء ، فهو يحبهم إلى درجة العبادة ، وهكذا لم يتأهل الأولاد المرح الذى يحيطه الأصدقاء ويتمتع بمركز من أفضل مراكز البلدة ، ولهذا كانت الحياة سهلة ضاحكة .

كانت أنطوانيت فى السادسة عشرة من عمرها ، وكان أوليفييه على وشك أن يتلقى المناولة الأولى (وهى سر من أسرار الكنيسة) يعيش حاملا وسط أحلامه الغامضة ، كانت انطوانيت تنصت بتلذذ إلى صوت الأمل المسكر

وهو يشدو كالبلبل فى الربيع ، يملأ القلب المرحة الشابة ، فتسعد بالشعور بازدهار جسدها وروحها - كانت تعلم أنها جميلة وتستمتع عندما يذكر ذلك . وكان مديح أبيها وكلماته الجريئة كفيلة بأن تلعب بعقلها ، كان أبوها معجبا بها فرحا بتدليلها ونظراتها المتمهلة فى المرآة ومكرها البرىء فى خبث ، كان يجلسها على ركبتيه هو ويناوشها مشيرا إلى قلبها الصغير وانتصاراته فى ميدان الحب ، وطلبات الزواج التى كان يدعى أنها تقدمت إليه وبعدها لها كلهم من البراجوازيين المحترمين ، كل منهم اكبر سنا وأقبح شكلا ، فكانت تصرخ باشمئزاز وتطلق ضحكاتها عالية وهى تلف ذراعيها حول عنق أبيها ووجهها فوق خده ، فكان يسألها : من سيكون المختار السعيد ؟ أهو رئيس النيابة الجمهورية الذى تقول عنه خادمة آل جنان العجوز : إنه قبيح مثل الخطايا السبع الرئيسية ، أم أنها تفضل الموثق اليدين ؟ كانت تضربه ضربات خفيفة لتسكنه أو تغلق فمه بيديها ، فكان يقبل هاتين اليدين الصغيرتين ويغنى لها وهو يؤرجحها على ركبتيه الأغنية المعروفة :

ماذا تريدين أيتها الجميلة . .

أهو زوج قبيح جدا ؟

فكانت تجيبه وه تنفجر ضاحكة بلحن متكرر فى الأغنية وهى تعقد له شعره تحت ذقنه :

يكون جميلا خير من أن يكون قبيحا .

أيتها السيدة ، من فضلك .

وفى قرارة نفسها . كانت تعتزم اختيار زوجها بنفسها . وكانت تعلم أنها غنية ، وأنها ستكون غنية.(فأبوها كان يشرح لها ذلك بكافة الطرق) وستكون عروسا مرغوبا فيها ، وبالفعل بدأت العائلات الكبرى فى البلد

والتى لها أبناء تتودد اليها منذ ذلك الحين ناصبة حولها شباكا لايصعب على أحد فهمها ، من التملق البسيط والمكر الماهر ؛ لتتمكن من صيد هذه السمكة الفضية الجميلة ، ولكن هذه السمكة مستعدة لأن تفلت منهم بسهولة ، فانطوانيت الذكية لم يفتها شيء من حيلهم هذه ، بل كانت تتسلى بها ، لم تمانع فى الزواج بشرط ألا يتعارض ذلك مع إرادتها . اذ كان قد اكتمل فى مخيلتها الصغيرة الشخص الذى تريد ان تقترن به .

وفى كل بلدة من بلاد الريف الفرنسى توجد أسرة تعتبر هى الأعرق ، تدعى أنها سليلة الأشراف القدماء وولاة المقاطعة ، ولكنها تنحدر فى معظم الأحيان من أحد الذين اشتروا الأموال المصادرة أثناء الثورة الفرنسية ، أو أحد رجال المال فى القرن الثامن عشر ، أو أحد متعهدى جيوش نابليون . وفى هذه البلدة كانت أعرق الأسر آل بونيفيه ، وقد أخذت تتقرب من آل جنان ، وكانت تمتلك على بعد فرسخين من البلدة قصرا ذا أبراج عالية مغطاه بالاردواز اللامع فى شكل مدبب . وكان هذا القصر يقع وسط الخمائل الكبيرة التى تتخللها الغدران المليئة بالاسماك . ووكان بونيفيه الصغير يحاول ملاطفة أنطوانيت وهو شاب وسيم الطلعة ، قوى بدين بالنسبة لسنه ، لايعمل شيئا طوال نهاره سوى الصيد والأكل والشرب والنوم، يركب الخيل ويلم بالرقص ، رقيق فى معاملته ، فى حين أن غباءه لايزيد على غباء أى شخص آخر . كان يحضر من حين الى آخر الى البلدة قادما من القصر وهو يرتدى الخزمات ويمتطى الجواد أو يركب عربته الصغيرة ، يزور صاحب المصرف متعللا ببعض الأعمال ، وكان أحيانا يحضر معه ثمار صيده أو باقة كبيرة من الورد يقدمها لسيدات آل جنان ، وكان ينتهز هذه الفرصة ليلاطف أنطوانيت ويتنزها معا فى الحديقة ، يوجه إليها المديح بأسلوب بدائى ، ويمزح بلطف وهو يفتل شاربه ويضرب أرض

الشرفة بمهمازه وكانت أنطوانيت تجده جذابا ، إذ أن كبرياءها وقلبها كانا يشعران بالرضا إإى جانبه . فكانت تسلم نفسها لهذه الساعات الأولى العذبة من الحب الصبيانى . أما أوليفييه فكان يكره ذلك الشريف لقوته وثقله وشراسته ، ولأنه كان يضحك بصوت عال ، وأيضا لانه يمتلك يدين تضغطان على يديه ، ولأنه كان يناديه دائما بشيء من الازدراء وهو يقرص فى خده قائلا « أيها الصغير » وكان يكرهه خاصة وبدون وعى ؛ لأنه يحب أخته هو ، ملكه هو ، هو فقط دون غيره .

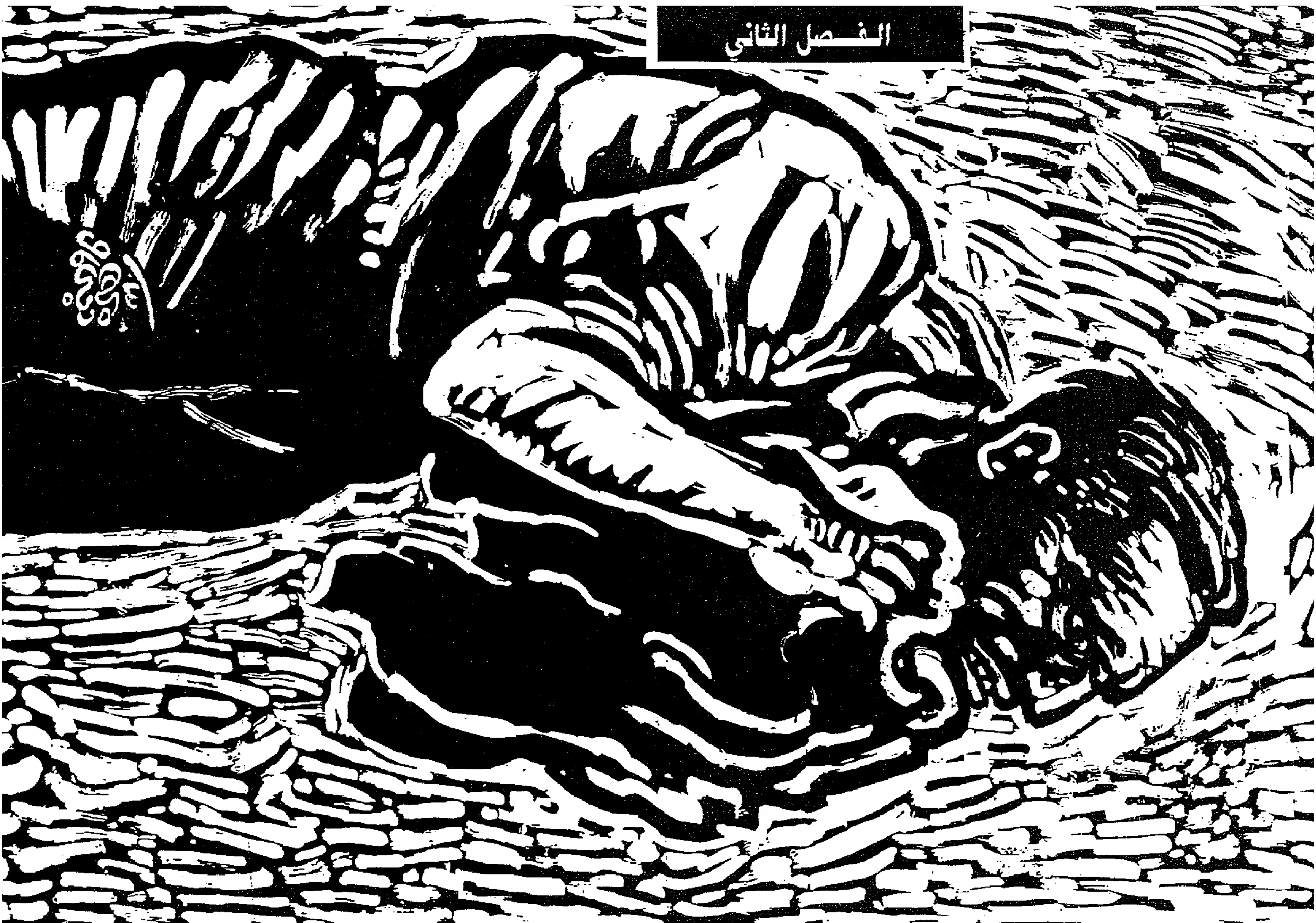
مع ذلك كانت الكارثة فى طريقها إليهم ، وفى حياة أمثال هذه العائلات البورجوازيه القديمة التى تتشبث بنفس المربع من الأرض منذ أجيال وتستنفذ كل عصاراتها ، لابد أن تقع مثل هذه الكوارات . فهذه العائلات تنام مطمئنة ، ومعتقده أنها خالدة مثل الأرض التى تحملها ، لكن الأرض تكون قد جفت تحتها ولم يعد لها جذور ، ضربة واحدة من فأس تكفى لتجتث كل شيء . وهنا يبدأ الحديث عن سؤ الحظ وعن المصائب غير المنتظرة . لوكانت شجرة الأسرة اكثر مقاومة لما كان هناك سؤ حظ ، أو على الأقل لمرت التجربة كريح عاصفة ، بعد أن تنتزع بعض الفروع دون أن تزعزع شجرة أبدا .

كان جنان صاحب المصرف رجلا ضعيفا كثير الثقة فى نفسه ، مغرورا إلى حد ما ، وكان يطيب له ـ ذرا للرماد فى العيون ـ أن يخلط متعمدا بين المظهر والواقع . يبعثر الأموال بغير ترو ، ولكن الواقع أن هذا التبذير الذى أخذت عادات التدبير المتوارث تلطف من حدته لم يكن لينقص كثيرا من ماله (فقد كان يجود بمتر مكعب من الخشب فى الوقت الذى كان يبخل فيه بعود من الثقاب) إلى جانب ذلك فهو لم يكن شديد الحذر فى أعماله ، فلم يكن يرفض ابدا أن يقرض أصدقاءه ، ولم يكن من الصعب على المرء أن يكون من

أصدقائه ، حتى الإيصالات لم يكن يهتم دائما بأخذها ، كان مهملا فى احتساب ديونه التى لم يكن قط ليطالب بها إن لم يتقدم الدائنون بردها بأنفسهم ، وكان يعتمد على حسن نية الآخرين كما كان ينتظر من الآخرين أن يعتمدوا على حسن نيته . والواقع أنه كان أكثر خجلا مما توصى به معاملاته الصريحة البعيدة عن الكلفة . لم يكن ليجرؤ على رد بعض السائلين شديدى الإلحاح ، أو على إظهار مخاوفه من مقدرتهم على السداد . وكان تصرفاته طيبة ممزوجة بالضعف . لم يكن يريد أن يجرح أحدا وهو يخشى أن يجرحه أحد ، لذلك كان يستسلم دائما . ولكى يخدع نفسه كان يقدم ماله بحماس لمن يقبله أنه يخدمه بقبوله . وأوشك أن يقنع نفسه بأن كل مايؤديه لابد وأن يكون عملا طيبا .

لم تكن هذه التصرفات لتبعد عنه عطف المدينين . كان الفلاحون يجلونه وهم يعرفون أن فى استطاعتهم اللجؤ إليه ، وكانوا يسرفون فى ذلك ، ولم يخيب جنان رجاءهم أبدا . لكن اعتراف الناس بالجميل حتى الطيبين منهم، كالفاكهة يجب جمعها فى أوانها . أما إذا تركت زمنا على الشجرة ، فلن تلبث ان تفسد . وعندما تمر بضعة شهور يكون عملاء جنان قد ألفوا التفكير فى أن هذه الخدمة إنما هى واجب يؤدى لهم ، بل إنهم كانوا يميلون إلى الاعتقاد بأن جنان وقد أظهر هذا السرور المتناهى لمساعدتهم واجد له منفعة فى ذلك ، وكان أرقهم شعورا يعتبرون أنفسهم قد تخلصوا إن لم يكن من الديون فعلى الأقل من الوفاء بالجميل ، لو أهدوا صاحب المصرف يوم سوق البلد أرنبا بريا اصطادوه أو سلة من بيض دجاجهم .

الفصل الثاني



2

لم يكن جنان قد تعامل حتى الآن إلا بأموال صغيرة مع أناس شرفاء ، فلم يكن هناك خطر يذكر ، كانت الخسائر طفيفة لم يبح بها لأحد ، لكن الأمر تغير عندما وجد جنان نفسه أمام محتال يزمع القيام بمشروع صناعى ضخم ، وكان على دراية بتساهل صاحب المصرف وموارده المالية . هذا الشخص الذى يتظاهر بالعظمة ويتحلى بوسام جوقة الشرف ، ويدعى صداقة لاثنين أو ثلاثة من الوزراء ، ولأحد المطارنة ، ولمجموعة من أعضاء مجلس الشيوخ ، وشخصيات مختلفة من مشاهير رجال المال والأدب ، وصداقة إحدى الصحف القوية النفوذ . ذلك الرجل كان يتصرف بمهارة فائقة تتفق وطباع جنان . وكان الأسلوب الذى اتبعه معه صارما ووديا فى الوقت نفسه . ولكى يقوى مركزه عرض على جنان رسائل من المديح العادى تلقاها من بعض معارفه من العظماء يشكرونه فيها على دعوة لعشاء أو يدعونه بدورهم . كان يعرض تلك الرسائل بطريقة غليظة يمكن أن تثير من يكون أكثر رقة من جنان ، والمعروف عن الفرنسيين أنهم لايقترون فى عملة الرسائل هذه ، وأنهم يتقبلون بسهولة مصافحة الأيدى ، ودعوات أشخاص لم يمض على معرفتهم بهم أكثر من ساعة ، بشرط ألا يطلبوا شيئا من مالهم . ثم أنهم قد لايبخلون بمالهم نحو الصديق الجديد إذا سبقهم إلى ذلك آخرون ، والرجل اللبيب الذى يحاول جن يريح جاره من ضائقته المالية سيكون سيىء الحظ إذا لم ينته بايجاد الشخص الذى يقبل أن يكون أول من يبدأ لينساق وراءه القطيع ،

وحتى إذا لم يكن ثمة قطيع قبل جنان فقد كان هو نفسه على استعداد لأن يبدأ بالتضحية . لقد كان جنان من ذلك النوع الجيد من الأغنام غزيرة الصوف التى خلقت لتجز . وخدعه هذا الرجل بماله من علاقات طيبة ، وبفصاحته ومداهنته ، كما خدعته نصائحه بما أتت من نتائج جيدة فى بادىء الأمر، مماجعله يخاطر وينجح ثم خاطر بالكثير ثم بكل مالديه ، ليس بما له فحسب ولكن بمال عملائه أيضا ، وكان يرفض ان يخبرهم بذلك لتأكده من الريح ، وكان يريد أن يبهرهم بخدماته .

وإذا بالمشروع يفشل . علم ذلك عن طريق غير مباشر من أحد مراسليه الباريسيين الذى قال كلمة عابرة عن الإفلاس الأخير ، وهو لا يدرى أن جنان كان من بين الضحايا ، لأن صاحب المصرف لم يكن قد باح لأحد بشىء . وكان قد أهمل أو تجنب طلب النصيحة عند القادرين على إرشاده ، عمل كل شىء سرا ، معجبا بحسن إدراكه الذى ظنه معصوما من الخطأ ، مكتفيا بمعلومات غامضة عن الموضوع . والحياة فيها مثل هذه الاخطاء الجسيمة ، ففى بعض الأحيان يدفع الإنسان بنفسه الى الهلاك المحتوم ، ويبدو أنه يخاف من مساعدة الغير له ، فهو يهرب من كل نصيحة يمكن أن تنقذه فيختبىء ويسرع فى لهفة ؛ ليلقى بنفسه فى الفراغ باختياره .

أسرع جنان إلى المحطة ليركب القطار إلى باريس وقلبه ملىء بالحسرة . لقد ذهب للبحث عن صاحبه ، صاحب المشروع الضخم ، كان مايزال يخدع نفسه أملا فى أن تكون الاخبار كاذبة ، أو على الأقل مبالغا فيها . لم يجد صاحبه ، فتأكد من الخراب . عاد محموما ولكنه يكتم كل شىء . لم يكن الشك حتى تلك اللحظة قد تطرق إلى الذهن ، فحاول جنان أن يكسب بضعة أسابيع أو أيام يقنع نفسه بتفاؤله أنه باستطاعته إيجاد حل لتعويض خسائره ، أو على الأقل خسائر عملائه . محاولات عديدة باندفاع

أخرق من شأنه ان ينتزع منه كل فرصة فى النجاة ، ودفعه اليأس إلى مضاربات خطيرة جازف فيها بالقليل الذى تبقى له ،وكانت سببا فى ضياعه النهائى . ومنذ ذلك الحين تغيرت طباعه تغيرا كاملا . كان لايتكلم عن أى شىء ، ولكنه بدا محتدا عنيفا قاسيا حزينا حزنا مخيفا . ومع ذلك ظل يتظاهر بالبشاشة مع الغرباء ، ولكن اضطرابه لم يخف على أحد . كانوا يرجعون ذلك إلى سوء صحته . أما مع أفراد عائلته فكان أقل مراقبة لنفسه ، كانوا قد لاحظوا أنه يخفى شيئا خطيرا ، وأنه تغير تماما ، فأحيانا كان يهجم على إحدى الغرف ليفتش دولابا ما ويبعثر الأوراق على الأرض ، ثم ينفجر فى ثورة من الغضب ، عندما لايجد مايريد أو عندما يتقدم أحد لمساعدته ، يظل غارقا فى هذه الفوضى ،فاذا سألوه عمايريد ، كان لايدرى . وبدا لايهتم بأفراد أسرته ، كان يقبلهم والدموع فى عينيه وأصبح لاينام ولا يأكل .

شعرت زوجته أن كارثة ما على وشك الوقوع ، ولكنها لم تتعود أبدا أن تشارك زوجها فى أعماله . كانت لاتفهم فيها شيئا ، ومع ذلك سألته عن الأمر فنهرها بشدة فلم تعاود ، بعد أن جرح شعورها ، كانت ترتعد دون أن تدرى السبب .

لم يستطع الأولاد أن يدركوا الخطر . أنطوانيت كانت من الذكاء بحيث أحست ـ مثل أمها وأخيها ـ بكارثة تقترب ، ولكن حبها الوليد كان قد ملك عليها كل تفكيرها ، لم تكن تريد أن تفكر فيما يقلقها ، كانت تقنع نفسها بأن الغيوم لم تلبث أن تزول ، أو أنه من الممكن وجود متسع من الوقت لمواجهتها حتميا .

ربما كان اوليفييه الصغير أقرب إلى فهم مايدور فى نفس صاحب المصرف المسكين . كان يشعر أن أباه يتألم . وكان يتألم معه سرا . ولكنه لم يجرؤ على أن يقول شيئا . كان عديم الحيلة ولم يكن يعرف شيئا ، وكان يبعد تفكيره

عن هذه الاشياء المقبضة التى تخرج عن دائرة تفكيره . وكان مثل أمه وأخته يميل إلى الاعتقاد بأن النكبات التى لايريدها أن تحدث قد لاتحدث . إن الضعفاء عندما يشعرون بالخطر يفعلون كالنعامة ، يخبئون رءوسهم خلف حجر متخيلين أن النكبة لاتراهم .

بدأت الإشاعات المزعجة تنتشر . قيل : إن الثقة بالمصرف بدأت تتزعزع . وعبثا حاول صاحب المصرف ان يصطنع الثبات أمام عملائه ، بعد أن شك بعضهم فى الأمر وطالبوا باسترداد أموالهم ، شعر جنان بأنه ضائع لامحالة ، وأخذ يدافع دفاع اليائس متظاهرًا بالغضب ، آخذًا على الناس بكبرياء ومرارة شكهم فى أمره . وبلغ به الأمر أن احتد على بعض عملائه القدامى ، مما أفقده ثقة الناس نهائيا . وتدفقت المطالبات بالسداد على المصرف ، ووجد جنان نفسه أمام الأمر الواقع ، بعد أن ضيق عليه عملاؤه ، ففقد صوابه . قام برحلة قصيرة إلى إحدى المدن القريبة الشهيرة بمياهها المعدنية حيث قامر فى أحد الكازينوهات بكل ماتبقى معه من مال ، وأضاع كل شىء فى ربع ساعة ثم عاد .

كان رحيله المفاجىء قد قلب المدينة الصغيرة ، فسرعان ماقيل : أنه هرب ، ووجدت زوجته صعوبة كبيرة فى مقاومة قلق الناس العنيف ، توسلت إليهم أن يصبروا ، وأقسمت لهم أن زوجها سيعود ، ولكنهم لم يصدقوا ، بالرغم من أنهم كانوا يريدون أن يصدقوا ؛ لذلك كانت عودته عندما علموا بها سلوى للجميع . لم يكن بعيدا على التفكير الكثيرين أن قلقهم كان فى غير محله وأن أسرة جنان كانت من الدهاء بحيث تستطيع أن تتخلص دائما من العثرات لو وقعت ، وكان مسلك صاحب المصرف يؤيد ذلك الشعور . وبعد أن تأكد مما يجب عليه أن يفعله بدا متعبا ولكن هادئا . وعندما نزل من القطار وسار فى طريقه قابل بعض الأصدقاء وأخذ يتحدث

إليهم باطمئنان . حدثهم عن الريف الذى نضبت مياهه منذ أسابيع ، وعن الكروم الجميلة ، وعن سقوط الوزارة التى أعلنتها صحف المساء .

ولما وصل إلى المنزل تظاهر بعدم الاكتراث لاضطراب زوجته التى أسرعت نحوه ؛ لتقصى عليه فى لهفة واضطراب ماحدث أثناء غيابه . حاولت أن تقرأ على وجهه إذا كان قد استطاع أن يدفع الخطر المجهول ، ومع ذلك لم يسمح لها كبرياؤها أن تسأله عن أى شىء . كانت تنتظر أن يبدأ هو الحديث ، ولكنه لم ينطلق بكلمة واحدة بما كان يشغل بالها ، أزاح بصمت ورفق رغبتها فى أن تتودد إليه لتدفعه إلى أن يبوح بأسراره ، تحدث عن حرارة الجو وعن تعبة ، وشكا من ألم شديد فى رأسه ، ثم جلسوا جميعا حول المائدة كما هى العادة ، كان قليل الكلام ، متعبا شارد الذهن ، مقطب الجبين ، ينقر على المائدة بأصابعه . حاول جهده أن يأكل وهو يعلم أن الكل يراقبه . أخذ ينظر النظرات الزائغة نحو أولاده الخائفين مع السكون ، ونحو زوجته المتمسكة بكبريائها والتى كانت تراقب حركاته دون أن تنظر اليه .

وقبل أن ينتهى العشاء بدا أنه استيقظ ، فأخذ يتحدث إلى انطوانيت وأوليفييه سألهما عما فعلاه أثناء رحلته ، ولكنه لم يسمع إجابة ، لم يسمع إلا صدى صوتيهما ، وبالرغم من أن عينيه كانتا مثبتتين عليهما فإن نظراته كانت زائغة . شعر أوليفييه بذلك فتوقف عن حكاياته ولم تعد لديه الرغبة فى مواصلة الحديث ، أما أنطوانيت فقد بدأت تبتهج بعد ضيق وأخذت تتحدث ، كعصفور مرح واضعه يدها فوق يد أبيها أو ممسكة ذراعه ؛ لتجعله ينصت جيدا لما تقصه عليه ، لم يتكلم جنان ، أخذت نظراته تنتقل بين أنطوانيت وأوليفييه وجبينه يزداد تقطيبا وبينما كانت أنطوانيت مسترسلة ، لم يستطع هو أن يخفى مافى نفسه ، ترك المائدة . أرستلهم أمهم ليلعبوا فى

الحديقة ، ومالبثوا حتى سمعت صيحاتهم الرفيعة وهم يتتابعون فى الممرات ونظرت مدام جنان إلى زوجها الذى أدار لها ظهره ، ودارت حول المائدة متظاهرة بأنها تريد شيئاً ما ، وفجأة اقتربت منه وقالت له بصوت يخنقه الاضطراب والخوف من أن يسمعها الخدم :

– أخيرا أنطوان ، ماذ ا بك ؟ إن بك شيئا ! نعم ، أنت تخفى شيئا ! هل حدث مكروه ؟ هل أنت مريض ؟

ولكن جنان ، هز كتفيه علامة على نفاد صبره ، وأبعدها عنه مرة أخرى قائلا بلهجة قاسية .

– لا ، أقول لك لا ! دعينى !

وابتعدت عنه وهى غاضبة تقول لنفسها أثناء غضبه الأحمق إنها لن تكترث بعد الآن مهما حدث لزوجها .

ونزل جنان إلى الحديقة . كانت أنطوانيت ماتزال تواصل مجونها وتضايق أخاها لتجعله يجرى أمامها . ولكن أخاها أعلن فجأة أنه لم يعد يريد أن يلعب واعتمد بمرفقه على حائط الشرفة على بعد خطوات من أبيه . حاولت أنطوانيت مرة أخرى مشاكسته ، لكنه أبعدها متجهما ، فألقت اليه بعبارات لإغاظته ، ولم يكن هناك أى مجال للعب فى الحديقة ، ودخلت المنزل وجلست إلى البيانو .

ظل جنان وأوليفييه وحدهما .

وسأل جنان ابنه بهدوء .

– ماذا بك ياصغيرى ؟ لماذا لم تعد تريد أن تلعب ؟

–إننى متعب ياأبى .

- حسنا ، إذن دعنا نجلس قليلا على هذا المقعد .

جلسا . كانت ليلة جميلة من ليالى سبتمبر : السماء صافية ، ورائحة البتونيا المعطرة تمتزج بالرائحة المتعطنة الكريهة التى تخرج من القناة الراكدة تحت حائط الشرفة ، كانت فراشات المساء الكبيرة الشقراء ترفرف بأجنحتها حول الأزهار محدثة صوتا يشبه صوت المغازل الصغيرة وعلى الضفة الأخرى للقناة صدى أصوات الجالسين أمام أبواب بيوتهم يرن فى السكون ، وفى داخل المنزل كانت أنطوانيت تعزف على البيانو مقطوعات إيطالية خفيفة وذات أنغام مرحة . أما جنان فقد وضع يد أوليفييه فى يده ، كان يدخن وكان أوليفييه يرى فى الظلام الذى أخذ يخفى تقاطيع وجه أبيه ضوء الغليون الخافت . كان الغليون يشتعل ثم ينطفىء ثم يسود فيشتعل وينتهى بأن ينطفىء نهائيا كانا لا يتحدثان . سأل أوليفييه عن أسماء بعض النجوم ، وكان أبوه مثل معظم البورجوازيين فى الريف جاهلا بالطبيعيات ولايعرف اسم أى نجم ؟ اللهم إلا الأبراج الكبيرة التى لا يجهل أسماءها أحد . ولكنه تظاهر بأن ابنه يسأل عن هذه الأبراج فسماها له . ولم يعارض أوليفييه فكان يجد لذة فى الاستماع إلى تلك الاسماء الغريبة ليرددها بصوت خافت ، ومع ذلك فقد كانت رغبته فى المعرفة أقل من ميله الطبيعى فى التقرب من أبيه . سكت الاثنان وكان أوليفييه يتأمل النجوم فاغرا فاه ، مسندا رأسه على ظهر المقعد . وشعر بالخمول عندما سرى إليه الدفء من يد أبيه وفجأة بدت هذه اليد ترتعش ، وعجب أوليفييه لذلك وقال بصوت ضاحك يثقله النعاس :

- آه ! إن يدك ترتعش ياأبى !

فسحب الأب يده .

ولم تكف رأس أوليفييه الصغيرة عن التفكير ، وقال بعد لحظة :

- هل أنت متعب أيضا ياأبى ؟

- نعم ياصغيرى .

وعاد الابن يقول بصوت ملىء بالعاطفة :

ـ يجب ألا تتعب نفسك إلى هذا الحد يا أبى .

وجذب جنان رأس ابنه نحوه وأسندها على صدره وهو يغمغم :

- ياصغيرى المسكين !

ولكن أفكار أوليفييه كانت قد اتخذت لها اتجاها آخر ، ودقت ساعة البرج ثمانى دقات ، فتخلص الولد من أبيه وهو يقول :

- أنا ذاهب لأقرأ .

كان يسمح لأوليفييه أيام الخميس بالقراءة لمدة ساعة بعد العشاء حتى يحين موعد النوم . كان ذلك منتهى السعادة بالنسبة إليه ، ولم يكن فى الدنيا شىء يستطيع أن يجعله يضحى بدقيقة من ذلك الوقت .

تركه أبوه يذهب . وأخذ يذرع الشرفة المظلمة جيئة وذهابا ثم دخل المنزل وهو الآخر .

وفى الغرفة كانت الأم والأولاد مجتمعين حول المصباح ، أنطوانييت تضع شريطا لرواد دون أن تكف لحظة عن الكلام أو الغناء ، بالرغم من تأفف أوليفييه الذى جلس إلى مكتبه وقد قطب حاجبيه مائلا على المائدة وهو يضع يديه على أذنيه حتى لايسمع شيئا . وكانت مدام جنان ترفو بعض الجوارب وهى تتحدث إلى الخادم العجوز التى وقفت إلى جانبها تقدم حسابا عن مصروفات اليوم ، وانتهزت تلك الفرصة لتتحدث قليلا . وكانت لديها

حكايات دائما تحكيها بطريقة مسلية مثيرة تجعلهم جميعا يتفرجون ضاحكين ، فتحاول انطوانيت أن تقلدها .

نظرا إليهم جنان صامتا ، ولم يلتفت إليه أحد . وقف حائرا فترة ثم جلس وأخذ كتابا فتحه ثم أغلقه وقام من مكانه ؛ إذ لم يكن فى إمكانه البقاء أكثر من ذلك ، أشعل شمعة وقال :

– مساء سعيد .

اقترب من الصغيرين وعانقهما بحرارة . وردا عليه بالتحية دون انتباه ودون النظر إليه . أنطوانيت كانت منهمكة فى أشغالها وأوليفييه كان مأخوذا بكتابه ، ولم يبعد يديه عن أذنيه ، ولكنه رد على التحية بغمغمة وهو يواصل القراءة ، ولم يكن يهتم عندما ينهمك فى القراءة أن يقع أفراد أسرته فى نار الموقد . خرج جنان من الغرفة وأخذ يتلكأ فى الغرفة المجاورة . جاءت زوجته بعد قليل لتضع بعض البياضات فى أحد الدواليب ، إذ كانت الخادمة قد انصرفت وتظاهرت أنها لم تره . وتردد هو ثم اقترب منها وقال :

– أرجو المعذرة ، لقد تحدثت إليك بخشونة منذ قليل .

وودت لو قالت له :

– لست متحاملة عليك يا زوجى المسكين ، ولكن ماذا بك ؟ قل لى إذن ماذا يجعلك تتألم ؟

ولكنها قالت له وهى سعيدة ، إذ وجدت الفرصة لتثأر لنفسها :

– دعنى وشأنى إنك فظ غليظ معى ، تعاملنى بطريقة لاتعامل بها خادمة .

وبهذه اللهجة ظلت تعدد له شكواها بإسهاب عنيف ملىء بالحقد .

قابل كل ذلك بحركة مليئة بالضيق ، ولكنه ابتسم ابتسامة مريرة ثم انصرف .

لم يسمع أحد صوت الرصاصة . ولكن الجيران تذكروا فى اليوم التالى عندما علموا بما حدث أنهم سمعوا عند منتصف الليل تقريبا وفى صمت الطريق صوتا جافا كأنه ضربة سوط ، فلم يهتموا به . ولم يلبث هدوء الليل أن عاد ، فغمر المدينة وطوى فى ثناياه الأحياء والموتى .

استيقظت مدام جنان بعد ساعة أو ساعتين ، ولم تجد زوجها إلى جانب ، قامت قلقة تجوب الغرف ، ثم نزلت إلى الدور السفلى واتجهت إلى مكاتب المصرف التى كانت فى جزء من مبنى مجاور للمنزل ، وهناك فى غرفة جنان وجدت زوجها على الأريكة منهارا على مكتبه وسط دمائه التى كانت ماتزال تقطر على الأرض ، وصرخت صرخة عالية ، وسقطت من يدها الشمعة التى كانت تحملها وأغمى عليها ، وسمعها من كان فى المنزل فهرع الخدم ليحملوها ويعنوا بها ،ثم حملوا جثة جنان ووضعوها على فراش . كانت غرفة الصغيرين مغلقة أنطوانيت نائمة . سمع أوليفييه أصواتا ووقع أقدام ، كان يود لو يعرف ما الخبر ، ولكنه خشى أن يوقظ أخته فعاود النوم .

فى صباح اليوم التالى كان الخبر قد انتشر فى المدينة قبل أن يعرف الصغيران أى شىء ، وأخبرتهما الخادم العجوز بالخبر وهى تنتحب ، كانت أمهما خارج وعيها لا تستطيع التفكير فى أى شىء ، وكانت صحتها فى حالة تبعث على القلق . وجد الصغيران نفسيهما وحيدين أمام الموت وقد تغلب رعبهما فى اللحظات الأولى على ألمهما . بعدها لم تترك لهما فرصة البكاء بعيدا عن الناس ، إذ بدأت منذ الصباح الإجراءات القضائية القاسية ، كانت أنانية الصبا تدفع أنطوانيت وقد اعتكفت فى غرفتها إلى بذل قصارى جهدها

حتى لاتفكر فى شىء آخر غير صديقها . كانت تلك هى وسيلتها الوحيدة التى تساعدها على طرد الألم الفظيع الذى كان يخنقها ، وانتظرت قدومه من ساعة لأخرى ، ولم يحدث أن تلطف صديقها معها مرة مثلما حدث فى المرة الأخيرة التى رأته فيها . لم تكن تشك فى أن يسرع لمشاركتها فى حزنها ، ولكن أحدا لم يأت . ولم يكتب إليها أحد كلمة واحدة ، دليالاً على أى تعاطف ، بل العكس، فبمجرد إذاعة الخبر أسرع كثير من الذين أودعوا أموالهم إلى مصرف جنان ومنزله ، واخترقوا الباب ثائرين على الزوجة والصغيرين بوحشية لا رحمة فيها .

وفى خلال بضعة أيام تكدست المصائب عليهم : فقد إنسان عزيز، إضاعة الثروة كلها ، ضياع مركز العائلة وتقدير الناس لهم ، وتخلى الأصدقاء عنهم ، والانهيار التام ، فلم يعد يوجد مايقيم أودهم .

كانت لهم نفوس طاهرة أبية جعلتهم يعانون من فضيحة هم أبرياء منها .

قاست أنطوانيت أكثر من أمها وأخيها ، لأنها كانت أبعدهم عن المصيبة .

وبالرغم مما أصاب مدام جنان وأوليفييه لم تكن دنيا الأسى هذه بغريبة عليهم ، كانوا متشائمين بطبيعتهم ؛ لذلك لم تفاجئهم المصيبة بقدر ماآلمتهم .

كانوا يفكرون كثيرا فى الموت هربا من الحياة ، وتسلط عليهم ذلك التفكير أكثر من أى وقت مضى ، فأخذوا يتمنون الموت ، إنه خضوع مؤسف من غير شك ، ومع ذلك فهو أقل هولا من ثورة أنطوانييت تلك الفتاة الصغيرة الممتلئة ثقة ، السعيدة التى تحب الحياة ، وقد وجدت نفسها فجأة مقهورة أمام يأس لاحوله ، وأمام هذا الموت المفزع .

وفجأة اكتشفت أنطوانييت بشاعة الحياة ، تفتحت عيناها فرأت الحياة على حقيقتها ، وعرفت أباها وأمها وأخاها ، وبينما أوليفييه وأمه يبكيان كانت هى منفردة مع حزنها ،وأخذت تفكر بعقلها اليائس فى الماضى والحاضر والمستقبل ، رأت أن كل شىء قد انتهى بالنسبة إليها لم يعد لها أمل أو سند ، لم يعد لها أحد تعتمد عليه .

شيعت الجنازة بطريقة مفجعة مخزية ، كانت الكنيسة قد رفضت استلام جثة المنتحر . أما الأصدقاء القدامى فكانوا من الجبن بحيث تركوا الأرملة وولديها اليتامى وحدهم ، صديقان أو ثلاثة فقط هم الذين ظهروا لبضع لحظات ، وكانت حالة الضجر التى يبدون بها أشق على نفوسهم من غياب الآخرين . كأنما كان حضورهم مكرمة يقدمونها ، كان صمتهم مثقلا بالعتاب وبالشفقة المهينة . ومن جهة أقاربهم فقد كان الأمر أسوأ من ذلك ، لا لأنهم لم يواسوهم بكلمة واحدة ، ولكن لأنهم أخذوا يلقونهم باللوم المرير. وبدا انتحار صاحب المصرف الذى لم يستطع أن يطفىء الأحقاد جريمة لاتقل بشاعة عن جريمة إفلاسه ، إن البورجوازية لا تغتفر للذين يقتلون أنفسهم ، وتفضيل الموت على الحياة مهما بلغت من الدناءة يبدو فى نظرها أمرا فظيعا ولو استطاعت لاستعانت بقوة القانون على من يبرر انتحاره بقوله :

– ليس هناك شقاء أكبر من الحياة بينكم !

ولم يكن أجبنهم أقل تلهفًا على وصم المنتحر بالجبن . فثورتهم تشتد عندما يجدون أن المنتحر ـ فضلا عن انتحارهـ قد أخذ بمصالحهم وحرمهم من الانتقام لأنفسهم بانسحابه من الحياة . لم يفكروا لحظة واحدة كم قاسى جنان المسكين قبل أن يلجأ إلى الموت . وتمنوا لو تعذب ألف مرة أكثر مما تعذب .

ولما وجدوا أنه أفلت منهم اتجهوا بسخطهم نحو ذويه، لم يعترفوا بذلك لأنفسهم؛ لأنهم يعرفون مافيه من ظلم ، ومع ذلك فما كانوا يمتنعون عن ظلمهم؛ لأنهم كانوا بحاجة إلى ضحية .

كانت مدام جنان التى لم تعد تصلح إلا للعويل ، تستعيد قوتها عندما يهاجم زوجها أحد . وحينئذ تكتشف مبلغ حبها له . واتفق الثلاثة الذين كانوا يجهلون مايخبئه لهم الغد عن مهر الأم وعن كل مايملكون ؛ليسدوا بقدر مايستطيعون ديون الأب ،ثم أصبحوا لا يستطيعون البقاء أكثر من ذلك فى المدينة ، فقرروا الذهاب إلى باريس .

فى أمسية أخيرة من شهر سبتمبر ، والحقول تختفى وراء الضباب الكثيف الأبيض الذى تطل منه على جانبى الطريق هياكل الأعشاب المبتلة وكأنها نباتات مائية ، فى تلك الأمسية التى سبقت الرحيل ذهبوا معا لوداع مقابر الأسرة وركع الثلاثة على الحافة الحجرية المحيطة بالقبر الذى لم يمض على ردمه وقت طويل .سالت دموعهم فى صمت، وأخذ صوت أوليفييه يتحشرج وأخذت السيدة جنان تجفف دموعها فى يأس، كانت تتعذب وتزيد من شقائها بترديد مستمر للكلمات التى قالها لزوجها فى آخر حديث معه قبل انتحاره . وتذكر أوليفييه حديثه مع أبيه وهما جالسان فى شرفة الحديقة ، فيما كانت أنطوانييت تفكر فيما سيحدث لهم بعد ذلك ، ولم يكن فى قلب واحد منهم ظل فى اللوم للشقى الذى أضاعهم جميعا معه . ولكن أنطوانيت أخذت تفكر.

- آه كم سنقاسى ياأبى العزيز !

وبدأ الضباب يتكاثف والرطوبة تنفذ إليهم، ولكن السيدة جنان لم تستطع أن تغادر المكان . ورأت أنطوانيت أخاها يرتعش ، فقالت لأمها :

–أمى ، أشعر بالبرد .

وقاموا من مكانهم ، وقبل أن يغادروا المكان استدارت السيدة جنان للمرة الأخيرة نحو القبر لتقول :

– ياصديقى المسكين .

خرجوا من المقابر والليل يرخى سدوله وأنطوانيت ممسكة بيد أخيها الباردة ، ودخلوا المنزل القديم . كانت آخر لياليهم فى العش الذى كانوا ينامون فيه دائما ، حيث انقضت حياتهم وحياة أسرتهم ، هذه الجدران ، هذا المأوى ، هذا المربع الصغير من الأرض الذى ارتبطت به مسرات العائلة وأحزانها برباط من الشدة بحيث بدت هذه الأشياء كأنها هى أيضا من أفراد العائلة ، وكأنها جزء من حياتهم لايستطيع أن يفرق بينها وبينهم إلا الموت .

كانت الحقائب جاهزة ، وكان عليهم أن يأخذوا أول قطار فى اليوم التالى قبل أن تفتح الحوانيت المجاورة أبوابها ؛ لكى يتجنبوا فضول الناس وتعليقاتهم المريرة . كانوا فى حاجة إلى أن يضم بعضهم بعضا ، ومع هذا اتجه كل واحد بطريقة لا إرادية إلى غرفته حيث مكث مدة طويلة . ظلوا وقوفا ، لايتحركون ولايفكرون حتى فى خلع القبعات والمعاطف . وأخذوا يتحسسون الجدران وقطع الأثاث وكل ماكانوا على وشك أن يتركوه ، ويضعون جباههم على زجاج النوافذ ، محاولين أن يحتفظوا فى أنفسهم بتجاوبهم مع الأشياء الحبيبة إليهم . وأخيرا بذل كل منهم جهده ؛ لينتزع نفسه من انفراده بأفكاره الحزينة واجتمعوا فى غرفة السيدة جنان ، غرفة العائلة ذاتها الكبيرة حيث كانوا يجتمعون كل مساء بعد العشاء ، عندما لايكون فى زيارتهم أحد . ذلك الماضى أصبح بعيدا ، وظلوا صامتين حول نار الموقد الخافتة ، وأدوا الصلاة معا وهم راكعون أمام السرير ، وناموا

مبكرين ؛ فقد كان عليهم أن يستيقظوا قبل الفجر ، ولكن وقتا طويلا مضى قبل أن يخلدوا إلى النوم .

كانت السيدة جنان تنظر طوال الليل إلى ساعتها لعل الوقت حان . وفى الرابعة صباحا قامت وأشعلت شمعة . وسمعتها أنطوانيت التى لم تنم ، وقامت هى الأخرى ، أما أوليفييه فكان غارقا فى نوم عميق ، ونظرت إليه السيدة جنان بحنان ، ولم تجرؤ على إيقاظه ، وابتعدت على أطراف أصابعها وهى تقول لأنطوانيت :

– يجب ألا تحدثى صوتا لينعم الصغير المسكين بآخر لحظاته هنا . وانتهت الاثنتان من ارتداء ملابسهما ومن تجهيز اللفائف . وحول المنزل كان يخيم صمت الليل البارد المخيف حيث أغرقت كل الأحياء ، الإنسان منها والحيوان ، فى النوم الدافىء ، كانت أسنان أنطوانيت تصطك من البرد ، وكان جسدها وقلبها قد تجمدا .

ودوى صوت الباب الخارجى فى الهواء المتجمد . كانت الخادم العجوز ومعها المفتاح الخاص بالمنزل قد جاءت لتقوم بخدمة العائلة للمرة الأخيرة . كانت قصيرة بدينة ، تضايقها بدانتها وتجعلها تتنفس بصعوبة ، ومع ذلك فهى تبدو خفيفة فى حركتها بالنسبة لسنها ، وتقدمت بوجه تبدو عليه الطيبة وحوله شال من الصوف ، كان أنفها أحمر من البرد ، وعنياها تترقرقان بالدموع . وأسفت إذ رأت سيدتها وقد قامت من نومها دون أن تنتظرها وأشعلت فرن المطبخ ، واستيقظ أولفييه أثناء دخولها ، أول حركة بدرت منه أنه عاد فأغلق عينيه ، ولف نفسه فى الأغطية ليواصل النوم . وجاءت أنطوانيت لتضع يدها برفق على كتف أخيها وهى تناديه بصوت خافت :

– أوليفييه ، حان الوقت ياصغيرى .

تنهد وفتح عينيه فرأى وجه أخته قريبا من وجهه . ابتسمت له ابتسامة حزينة ، ومسحت يدها على جبينه ، وقالت له مرة أخرى :

– هيا بنا .

قام أوليفييه .

خرجوا من المنزل كاللصوص دون أن يحدثوا ضوضاء ، كل واحد منهم يحمل لفائف بين يديه تتقدمهم الخادمة العجوز وهى تدفع حقائبهم أمامها على عربة صغيرة . تركوا كل شىء تقريبا . لم يأخذوا إلا ماتحمله أجسامهم وبعض الملابس حتى تشحن فى المستقبل بعض الأشياء التذكارية البسيطة ، كالكتب والصور ، وتلك الساعة القديمة التى اختلطت دقاتها بدقات قلوبهم . كان الهواء لاذعا فى برودته ولم يكن أحد قد استيقظ فى المدنية : النوافذ مغلقة ، والشوارع مقفرة . ساروا صامتين فيما عدا الخادمة التى أخذت تتحدث وحدها .

. جاولت السيدة جنان أن تثبت فى مخيلتها معالم المدينة التى تذكرها بكل ماضيها ، ولم تستطع فى المحطة أن تتغلب على عزة نفسها ، فاشترت تذاكر السفر بالدرجة الثانية ، بالرغم من قرارها السابق بالاكتفاء بالدرجة الثالثة ، ولكنها لم تجرؤ على قبول هذا الذل أمام اثنين أو ثلاثة من موظفى السكك الحديدية الذين يعرفونها . تسللت بسرعة إلى مقصورة خالية حبست نفسها فيها مع الصغار ،كانوا يرتعدون وهم خلف الستائر؛ خشية ظهور أحد المعارف ، ولكن أحدا لم يظهر . كانت المدينة قد بدأت تستيقظ ساعة رحيلهم ، وكان القطار خاليا إلا من ثلاثة أو أربعة من القرويين ومن بعض الثيران التى أطلت برءوسها فوق حاجز العربة ، وأخذت تخور خوارا حزينا ، وبعد طول انتظار صفر القطار صفيرًا متصلا ، ثم اندفع فى الضباب ، أزاح

المهاجرون الثلاثة الستائر ، والتصقت وجوههم بزجاج النوافذ ؛ ليروا مدينتهم الصغيرة للمرة الأخيرة والتى كاد برجها العتيق ذو الطراز القوطى يختفى خلف غلالات الضباب . كانت الربوة مغطاة بالقش ، والمراعى يكسوها الجليد الأبيض يتصاعد منه الدخان ، وكأنما كان المنظر حلما بعيدا لاوجود له . اختفى المنظر عندما انحنى القطار ليخترق جبلا . اطمأنوا إلى أن أحدا لم يعد يراهم ، فلم يتمالكوا شعورهم ، وضعت السيدة جنان منديلها على فمها وأجهشت فى البكاء ، وارتمى أوليفييه على أمه تاركا رأسه على ركبتيها ، وأخذ يغمر يديها بالعبرات والقبل . أما أنطوانيت فأخذت تبكى فى صمت وهى جالسة فى الركن الآخر من المقصورة متجهة نحو النافذة ، ولم يكن بكاء الثلاثة للسبب نفسه . فالسيدة جنان وأوليفييه لم يفكرا إلا فيما تركا وراءهما ، أما أنطوانيت فكل تفكيرها اتجه نحو ماسيحدث لهم بعد ذلك ، كانت تلوم نفسها على هذا التفكير ، وتتمنى لو استطاعت ألا تخرج عن نطاق الذكريات ، كانت محقة فى النظر إلى المستقبل ؛ إذ كانت أكثر إمعانا فى الأمور من أمها وأخيها اللذين أخذا يعقدان الآمال البعيدة على باريس . ولم يكن يدور بخلد أنطوانيت نفسها شىء مما ينتظرهم هنالك فى باريس ، التى لم يزوروها من قبل ، حيث للسيدة جنان أخت متزوجة من أحد القضاة الأثرياء وتعقد عليها كثيرا من الأمل .

كانت مقتنعة بأن ولديها لن يجدا صعوبة كبيرة فى كسب عيشهما بطريقة شريفة بما كسباه من تعليم ، وبما لديهما من استعداد فطرى ، وكانت - ككل الأمهات - مخطئة فى تقدير إمكانياتهما .

بمجرد وصولهم إلى باريس شعروا باكتئاب شديد . ففى المحطة ذهلوا من تزاحم الناس أمام الباب الخارجى . كانت السماء تمطر، ولم يستطيعوا الحصول على عربة . كان عليهم أن يسيروا طويلا وهم يحملون لفائفهم

الثقيلة التى أنهكت قواهم واضطرتهم إلى التوقف فى منتصف الطريق ، معرضين أنفسهم لأخطار العربات ولما تقذفهم به من طين ، فلم يرد حوذى واحد على نداءاتهم . وأخيرا بينما هم يضعون لفائفهم على العربة سقطت منهم فى الطين لفة من الأغطية ، واستغل جهلهم حمال المحطة الذى نقل حقائبهم والحوذى أن يذهب بهم إلى فندق من تلك الفنادق المرتفعة الأجر على الرغم من رداءتها ، والتى تعود القرويون أن يقصدوها متغاضين عن عيوبها لمجرد أن أحد أجدادهم كان يقصدها منذ ثلاثين عاما . استغلوا أبشع استغلال ، قيل لهم : إن الفندق ممتلىء فحشدوا جميعا فى غرفة ضيقة رغم أنهم دفعوا أجر غرف ثلاث ، ورغبةً فى الاقتصاد تجنبوا الأكل فى مطعم الفندق ، وطلبوا طعاما متواضعا كلفهم ثمنا لايقل عن ثمن غذاء الفندق ، بل أجاعهم . وتلاشت آمالهم منذ اللحظة الأولى لوصولهم ، وفى أول ليلة يقضونها فى الفندق لم يتمكنوا من النوم فى الغرفة الرديئة التهوية التى احتشدوا فيها . شعروا بالبرد وبالحر وكادوا يختنقون . كانوا يقفزون لوقع أى خطوات فى الممر ، أو لصوت الأبواب وهى تغلق أو الأجراس الكهربائية أولصوت العربات وضجيج سيارات النقل الذى لاينقطع . وشعروا بالهول إزاء هذه المدينة الضخمة حيث ألقوا بأنفسهم فابتلعتهم

وفى اليوم التالى أسرعت السيدة جنان إلى منزل أختها فى شارع هوسمان حيث تسكن شقة فاخرة . كانت تأمل ـ وإن لم تصرح بذلك ـ فى ان تعرض عليها الإقامة فى المنزل حتى تزول الضائقة ، وكانت المقابلة الأولى كافية لتشتيت أملها ، فأفراد أسرة بواييه دى لورم كانوا ثائرين لإفلاس قريبهم ، خاصة الزوجة التى تخشى أن يجلب لهم ذلك العار ويضر بمستقبل زوجها . وترى فى ارتباط الأسرة البائسة بهم أمرا مشينا يزيد من الإضرار بسمعتهم . أما القاضى فكان تفكيره مماثلا لتفكير زوجته . ولكنه كان على شىء من

الطيبة ، وربما كان مستعدا للمساعدة لولا تدخل زوجته ، رغم ارتياحه لمواقفها ، استقبلت السيدة بواييه أختها ببرود شديد تأثرت له السيده جنان، ولكنها تغلبت على كبريائها وحدثتهم بطريقة غير مباشرة عن الشدائد التى تحيط بها وعما كانت تنتظره منهم . . ولكنهم بدوا كأنهم لم يسمعوا شيئا . حتى العشاء لم يطلبوا منهم أن ينتظروا لتناوله ، واكتفوا بدعوتهم لتناول العشاء رسميا فى نهاية الأسبوع ، حتى هذه الدعوة لم تأت عن طريق السيدة بواييه، ولكن عن طريق القاضى الذى كان هو نفسه قد أحرجه استقبال زوجته لهم محاولا أن يخفف من حدة الموقف ، فتظاهر بالطيبة نحو السيدة جنان وولديها بعد أن شعروا أنه لم يكن صريحا كل الصراحة بل أنانيا شديد الأنانية . وعاد أفراد الأسرة البائسة إلى الفندق ، ولم يجرءوا على تبادل مشاعرهم نحو هذه الزيارة الأولى .

قضوا الأيام التالية يتجولون فى باريس بحثا عن مسكن ، أنهكهم صعود الأدوار المرتفعة والغرف المظلمة التى بدت كئيبة بالنسبة لمنزلهم الكبير فى الريف . أخذوا يضيقون بهذه الحياة شيئا فشيئا . وكان تعجبهم الشديد لكل مايرونه فى الشوارع والمحلات والمطاعم سببا فى استغلال الناس لهم . كان ثمن مايطلبونه يرتفع فجأة ، كأن لديهم القدرة على تغيير كل مايلمسون إلى ذهب يدفعون ثمنه . كانوا على درجة هائلة من سوء التصرف عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم .

وبالرغم من أن السيدة جنان لم يعد لها أمل فى أختها كانت لاتزال تبنى آمالا على دعوة العشاء التى كانوا يستعدون لها بقلوب واجفة ، ولكنهم قوبلوا فيها كمدعوين لا كأقارب ، ومع ذلك فإن أصحاب الدعوة لم يكلفوا أنفسهم سوى تكلفهم فى الاستقبال ، ورأى أوليفييه وأخته أولاد خالتهما ، كانا فى السن نفسه تقريبا ، ولكن لقاءهم لم يكن أحسن من لقاء أبيهما

وأمها . الفتاة الصغيرة الأنيقة المهتمة بمظهرها تتحدث إليهم بطرق مصطنعة جعلتهم فى حيرة . الابن الصغير كان فى ضيق لاضطراره إلى العشاء مع أقاربه الفقراء ، فبدا مشمئزا طوال الوقت . أما السيدة بواييه فبدت فى جلستها مستقيمة لاتتحرك . وبدت حتى وهى تقدم الطعام كأنها تعطى درسا لأختها . وأخذ زوجها يتحدث عن أشياء تافهة ؛ ليتجنب الأحاديث الجدية . ولم يخرج الحديث الفاتر عن نطاق الأكل ؛ خوفا من الانسياق إلى أى موضوع آخر خاص وخطير . جاهدت السيدة جنان حتى استطاعت أن تجذب الحديث نحو الموضوع الذى يشغل بالها ، ولكن مدام بواييه أسكتتها فجأة بكلمة عابرة ، فلم تعد السيدة جنان تجرؤ على معاودة الحديث فى الموضوع .

انتهى العشاء ، فدفعت السيدة جنان ابنتها إلى العزف على البيانو؛ لتظهر موهبتها ، كانت الفتاة ضجرة فجاء عزفها رديئا . وبدا الضيق على أفراد أسرة بواييه ، فانتظروا حتى تنتهى أنطوانيت من العزف ونظرت السيدة بوابيه إلى ابنتها وحركت شفتيها بطريقة ساخرة . فلما استمرت الموسيقا وقتا طويلا عادت السيدة بواييه تتحدث مع السيدة جنان فى أشياء ليست ذات أهمية . وأخيرا فقدت أنطوانييت السيطرة على القطعة الموسيقية عندما لاحظت أنها فى أحد المقاطع عادت تعزف القطعة من أولها بدلا من إكمالها ، ووجدت أنها لن تستطيع التقدم أكثر من ذلك ، فأوقفت العزف بعد أن ختمته بلحنين غير صحيحين ولحن ثالث خاطىء ، وقال لها السيد بواييه :

- أحسنت .

وطلب القهوة .

وقالت السيدة بواييه : إن ابنتها كانت تأخذ دروسا عند بوجنو. ثم سألت : أين درست أنطوانييت ؟

وأخذ الحديث يفتر بعد أن استنفد كل ما يمكن أن يقال عن تحف الصالون وملابس السيدة بواييه وابنتها . وأخذت السيدة جنان تردد فى نفسها :

– حان الوقت للكلام ، يجب أن أتكلم .

انقبضت أساريرها ، فبينما هى تبذل جهدا كبيرا وتوشك أن تتكلم إذ بالسيدة بواييه تفهمها عرضا وبلهجة لا تمت إلى الاعتذار بصلة ، أنهم يأسفون لاضطرارهم إلى مغادرة المنزل عند منتصف الساعة العاشرة تلبية لدعوة لم يستطيعوا تأجيلها . وشعر أفراد أسرة جنان بالإهانة ، فقاموا على الفور ؛ليغادروا المكان ، وتظاهر أهل البيت بأنهم يريدون استبقاءهم ، ولكن بعد ربع ساعة سمع جرس الباب ، وأعلن الخادم عن قدوم بعض الأصدقاء من الجيران الذين يقطنون فى الطابق الأسفل . وتبادل السيد بواييه وزوجته النظرات وهمسا إلى الخادم همسات سريعة ، ثم تمتم بواييه بعذر ما وهو يدخل أسرة جنان إلى غرفة مجاورة ، كان يريد أن يخفى تماما عن أصدقائه وجود تلك العائلة التى تسىء إلى سمعته ، وأن يخفى وجودها عنده بالذات . ترك أفراد أسرة جنان فى الغرفة دون موقد يدفئهم ، كان الولد والبنت فى ثورة نفسية عنيفة لهذه الإهانات ، فترثرت الدموع فى عينى أنطوانييت ، وأرادت أن تغادر المنزل ، فقاومت أمها الرغبة بادىء الأمر . فلما طال الانتظار قبلت الرحيل ، فخرجوا ولحق بهم بواييه فى المدخل بعد أن أخطره الخادم برحيلهم ، واعتذر لهم ببعض عبارات تافهة متظاهرا بالإمساك بهم ، ولكنهم رأوا أنه كان يتعجل رحيلهم . وساعدهم فى ارتداء معاطفهم وشيعهم إلى الباب بابتسامات وتحيات وكلمات رقيقة قالها بصوت خافت ، ثم أخرجهم ، وعندما عادوا إلى الفندق انفجر الولد والبنت يبكيان من شدة غيظهم ، وأخذت أنطوانييت تضرب الأرض بقدميها ، وأقسمت

ألا تزور هؤلاءالناس بعد ذلك أبدًا . وانتقلت السيدة جنان إلى شقة فى الدور الرابع لمنزل يجاور حديقة النباتات ، تطل على حوش مظلم مشقق الجدران ، أما غرفة المائدة وغرفة الاستقبال فتطلان على شارع مزدحم تمر فيه مركبات الترام التجارية وعربات نقل الموتى فى صف طويل ينتهى فى مقبرة ايفرى ، ويظل يتسكع فيه بين المقاعد ويتشاجر بأصوات عالية بعض الإيطاليين مع الصبية . لم يكن فى استطاعة أسرة جنان ترك النوافذ مفتوحة بسبب هذه الضوضاء . وفى المساء عند العودة كان عليهم أن يشقوا طريقهم بين الامواج المتلاطمة من الجماهير المتسابقة الذين تفوح منهم رائحة كريهة . كان عليهم أن يعبروا الشوارع المزدحمة ذات الأرضية الموحلة ، وأن يمروا بأحد محلات الخمور القذرة بالدور الأرضى من المنزل المجاور والتى يقف على بابها عدد من الفتيات البدينات بوجوههم المنتفخة والشعر الأصفر ، وقد كسون وجوههن بطبقات من المساحيق المختلفة وأخذن يرقبن الناس بنظرات وقحة .

كان المال القليل الذى تملكه الأسرة ينفق سريعا . وأخذوا يراقبون كل مساء وهم يتحسرون الثغرة التى بدأت تتسع لتبتلع مالهم . حاولوا أن يحرموا أنفسهم فلم ينجحوا فى ذلك ، فهم فى حاجة إلى سنوات من التجارب ليتعلموا فن الادخار ، خصوصا وأنهم لم يمارسوه منذ الصغر . فالذين لم يتعودوا التدبير بطبيعتهم يضيعون أوقاتهم إذا حاولوا ذلك . فبمجرد أن تلوح فرصة جديدة للإنفاق تراهم يستسلمون لها ويؤجلون التوفير لمرة أخرى . ثم عندما يحدث ويربحون أو يعتقدون تراهم يستسلمون لها ويؤجلون التوفير لمرة أخرى . ثم عندما يحدث ويربحون أو يعتقدون أنهم ربحوا أقل شيء ممكن يسرعون باستخدام ذلك فى مصروفات يتجاوز مجموعها ذلك الربح بعشرات المرات .

فى خلال أسابيع نضبت موارد الأسرة ، واضطرت السيدة جنـان إلى التنازل عن كل ما تبقى من كبرياء ، وذهبت بغير علم ولديها إلى طلب المساعدة من السيدة بوابيه بحيث تلقاه وحده فى مكتبه ، وتوسلت أن يمدها بمبلغ بسيط حتى يجدوا عملا يعيشون منه . كان بوابيه ضعيفا وإنسانا ، فوافق بعد أن حاول إرجاء الإجابة ، ولكنه فى لحظة تأثر لم يملك فيها نفسه قدم لها مائتى فرنك . ومع ذلك فسرعان ماندم على ذلك ، خاصة عندما اقتنع بخطئه أمام زوجته التى غضبت أشد الغضب لضعف زوجها وللمناورات التى ظنت أن مدام جنان تقوم بها .

أضاع أفراد أسرة جنان أيامهم يجوبون باريس بحثا عن عمل . لم تستطع السيدة جنان بأفكارها التى ورثتها عن بورجوازية الريف الثرية أن تقبل أعمالا غير حرة . ولم تقبل لابنتها بالعمل مربية ، أما الأعمال الأخرى فهى أعمال الدولة الرسمية غير المخلة بالشرف . كان لابد من وسيلة تمكن أوليفييه من تكملة دراسته ؛ ليصبح مدرسا ، أما أنطوانييت فكانت أمها تودإلحاقها بأحد معاهد التعليم لتعطى دروسا ، أوالمعهد العالى للموسيقا تواصل فيه الدراسة حتى تحصل على إحدى جوائز البيانو .

أما المعاهد التى لجأت إليها أنطوانييت فقد وجدتها مكتفية بمدرسيها الذين يحملون مؤهلات لايمكن أن يقارن بها مؤهل أنطوانييت البسيط وهو كفاءة التعليم ، وعليهم أن يعترفوا بأن قدرة أنطوانييت فى الموسيقا عادية إذا قيست بمواهب آخرين لم يتمكنوا حتى من الظهور . أكتشفت الأسرة تلك المعركة الرهيبة من أجل الحياة . فباريس تستهلك من المواهب الكبيرة والصغيرة استهلاكا جنونيا حتى ضاق بها الأمر، وأصبحت لاتدرى ماذا تفعل بكل هذه المواهب .

شعر الأخوان بشىء من اليأس ، وبالغا فى عدم الثقة بمقدرتهما واعتقدا

أنهما ليسا على قيمة كبيرة ، وتحمسا فى إثبات ذلك لنفسيهما ولأمهما . أماأوليفييه الذى لم يجد مشقة فى أن يفوز بنصيب الأسد بين زملائه عندما كان فى مدرسته بالريف فقد حطمته تلك التجارب ، وبدا كما لو أنه فقد كل مايملك من مواهب - التحق بالليسيه وحصل على المجانية . ولكن حدث فى بادىء الأمر أن جاء ترتيبه متأخرا لدرجة أفقدته تلك المجانية . لقد ظن نفسه أبله تماما ، وشعر فى الوقت نفسه بالاشمئزاز نحو باريس ونحو هذه المخلوقات المتزاحمة المتلاحقة ، ونحو نسق زملائه الذى لايطاق وأحاديثهم الدنيئة وحيوانية البعض ممن لا يتورعون عن أن يتقدموا إليه بعروض بشعة . ولم يكن حتى ليقوى على أن يواجههم بمقدار احتقاره لهم . فكان يشعر بنفسه ذليلا لمجرد التفكير فى مذلاتهم . أخذ يلجأ مع أمه وأخته إلى الصلوات الحارة التى كانوا يؤدونها معا كل مساء ، وذلك بعد أن ينتهى يوم جديد مملوء باليأس والمهانات . كانت تلك المهانات وصمة لأولئك الأشخاص ذوى القلوب البريئة لا يجرءون على التحدث عنها فيما بينهم . ولكن إيمان أوليفييه بدأ يتزعزع شيئا فشيئا عندما احتك بروح الكفر المنتشرة فى باريس . كان يحدث له ذلك دون أن يشعر به ، كما يحدث لطبقة الجير الحديث أن تتساقط على الجدران عندما تنزل عليها الأمطار . كان لايزال مؤمنا ، ولكن حيثما اتجه كان يجد فكرة الإيمان تحتضر .

أما أمه وأخته فأخذتا تواصلان مساعيهما الفاشلة . عادت السيدة جنان لمقابلة أسرة بواييه التى أرادت التخلص منها ومن ولديها ، فهيأت لها ولابنتها عملا . عرضوا على الأم أن تعمل خادمة لسيدة عجوز تقضى الشتاء فى جنوب فرنسا . أمانطوانييت فوجدوا لها وظيفة مدرسة خاصة لأسرة من غرب فرنسا تقضى العام كله فى الريف .

وبالرغم من أن شروط العمل كانت لا بأس بها فقد رفضته السيدة

جنان ، ولم يكن ذلك لشعورها بالذلة من خدمتها للآخرين فحسب ، ولكن لأنها لم تشأ أن تعرض ابنتها لهذا الهوان ، لاسيما أن أنطوانبيت ستكون بعيدة عنها . ومهما تبلغ بهم التعاسة فلم يفترقوا ؛ إذ أن هذه التعاسة نفسها هى التى جعلتهم يتمسكون بالبقاء معا . وحملت لهم السيدة بواييه ذلك على محمل سيىء وقال : إنه إذا لم يكن لدى الإنسان الإمكانات الكافية فعليه ألا يتصنع الكبرياء . ولم تتمالك السيدة جنان شعورها فوصمت شقيقتها بقسوة القلب ، فتفوهت السيدة بواييه ببعض العبارات الجارحة عن الإفلاس وعن المال الذى تدين به السيدة جنان . افترقا فراقا لا لقاء بعده أبدا ، وانقطعت العلاقات تماما بينهما . وأصبحت السيدة جنان لاهم لها إلا أن ترد لأسرة بواييه المال الذى اقترضته منهم ، ولكن ذلك لم يكن فى استطاعتها .

استمرت المحاولات بدون جدوى . وذهبت السيدة جنان لمقابلة نائب منطقتها البرلمانى وشيخها ، وكان جنان قد أدى لهما كثيرا من الخدمات ، ولكنها قوبلت فى كل مكان بنكران الجميل ، فنائب المنطقة لم يهتم حتى بالرد على خطاباتها ، وعندما جاءت تطرق بابه أرسل إليها من يبلغها بعدم وجوده . أما عضو الشيوخ فقد حدثها حديثا فيه غلظة مظهرا أسفه لمركزها الذى عزاه إلى جنان الحقير وهو يلومه على انتحاره لوما عنيفا . ودافعت السيدة جنان عن زوجها ، فأردف الشيخ قائلا : إنه يعرف جيدا أن جنان لم يتصرف عن قلة شرف ولكن عن غباء ، وأنه كان إنسانا ساذجا وشبهه بخنفس حقير ، لايريد أن ينفذ إلا مايدور برأسه ، دون استشارة أحد ، ويأبى الاستماع إلى أية نصيحة . ولو كانت المصيبة حلت به وحده لكان خيرا وما كان لأحد أن يقول شيئا ، أما أن يلقى بزوجته وولديه إلى البؤس يزرعهم فيه ويتركهم ليتصرفوا حسبما يستطيعون ، بالإضافة إلى الأضرار البالغة الأخرى ، فذلك أمر تستطيع السيدة جنان أن تغفره له إذا

كانت قديسة ، أما هو - عضومجلس الشيوخ الذى ليس بقديس ، والذى يكفيه أن يكون رجلا عاملا رزينا - فليس لديه أى مبرر ليغفرله ، فالشخص الذى ينتحر فى مثل هذه الأحوال إنسان حقير . شىء واحد يستطيع أن يخفف الجرم بالنسبة لجنان ، أنه لم يكن مسئولا تماما عن الأحداث التى دفعته إلى الانتحار .

اعتذر عضو مجلس الشيوخ للسيدة جنان لاندفاعه والحديث عن زوجها ، وعزا ذلك إلى عطفه عليها . ثم فتح درج مكتبه وأخرج منه ورقة ذات الخمسين فرنكا وقدمها لها ، كأنها صدقة ، فرفضتها .

بحثت عن عمل فى مكاتب إحدى المصالح الكبرى ، وذهبت كل محاولاتها عبثا ودون نتيجة . وكلما استجمعت قواها لتحقق خطوة ما عادت مثبطة الهمة لدرجة لا تستطيع معها الحركة عدة أيام ، ثم عندما تقرر معاودة الكرة تكون الفرصة قد ضاعت لم تكن خطأ عند رجال الكنيسة ، ربما لأنهم لايجدون لهم مصلحة فى مساعدتها أو لأنهم لم يهتموا بأمر أسرة مفلسة اشتهر عائلها بعدواته لرجال الدين . كل ما استطاعت السيدة جنان أن تحصل عليه بعد جهود كبيرة هو عمل فى إحدى المدارس بالراهبات كمدرسة للبيانو، عمل غير مُجْزٍ بأجر يثير السخرية . ولكى تزيد دخلها قليلا أخذت تقوم بنسخ الأوراق مساء كل يوم لأحد المكاتب . كانت تعامل بقسوة، وبالرغم من مثابرتها فقد كان خطها وذهولها يجعلانها تنسى كلمة أو سطرا فتحصل على ملاحظة جارحة . وبعد أن تدمى عينيها وينحنى ظهرها من كثرة الكتابة حتى منتصف الليل ترفض النسخة التى كتبتها ، وتعود إلى المنزل مضطربة . كانت تقضى أياما تتألم فيها دون أن تهتدى إلى حل ما .كانت منذ زمن طويل تشكو مرضا بالقلب زادت المحن من خطورته ، فأوحى إليها ذلك بإحساسات مخيفة ، كانت تعتريها أحياناً

حالات من الخوف ، وتشعر باختناق كأنها على وشك أن تموت . ولم تعد تغادر منزلها إلا ومعها اسمها وعنوانها ، خشية أن تسقط فى الطريق . ماذا يحدث لو اختفت عن الحياة ؟ كانت أنطوانيت تعاونها بقدر الإمكان ، مصطنعة الاطمئنان وهى غير مطمئنة . كانت تتوسل إليها أن تحافظ على صحتها وتتركها لتعمل بدلا منها . ولكن السيدة جنان كانت تعمل بها تبقى لها من كبرياء ، على الأقل حتى لا تلقى ابنتها تلك المهانات التى كان عليها أن تقاسيها .

حاولت أن ترهق نفسها فى العمل وأن تقلل من النفقات ، ولكن على غير طائل؛ إذ أن دخلها كان لايكفى مطالب العيش ، فاضطرت ان تبيع بعض الحلى التى تبقت لها ، وآلمها أن ثمن تلك الحلى سرق منها فى اليوم الذى حصلت فيه عليه . فقد فكرت المسكينة التى كانت دائما شاردة أن تنتهز الفرصة وتدخل محل « بون مارشيه » لتشترى هدية صغيرة لأنطوانييت بمناسبة عيد ميلادها . كانت ممسكة بحافظة نقودها بيدها حتى لاتضيع منها ، وبحركة آليه وضعتها لحظة على المنضدة لتفحص شيئا ما ، فتفقدت الحافظة فاذا بها اختفت ، وكانت تلك هى آخر لطمة .

بعد بضعة أيام وفى إحدى الأمسيات الأخيرة الخانقة من شهر أغسطس ، وكان الضباب الكثيف يسير متثاقلا فوق المدينة ، عادت السيدة جنان من عملها فى مكتب النسخ حيث كان عليها أن تسلم بعض الأوراق العاجلة ، فوجدت أنها تأخرت عن موعد العشاء ، فأسرعت فى مشيتها إلى حد الإرهاق حتى لايشعر ولداها بالقلق عليها . وعندما وصلت إلى مسكنها بالدور الرابع لم تعد تستطيع أن تتكلم أو تتنفس ، لم تكن تلك أول مرة تغدو فيها على مثل هذه الحال ، حتى اعتاد ولداها على ذلك . وبمجرد وصولها تحاملت على نفسها لتجلس معهما إلى المائدة . كان أوليفييه وأنطوانييت

متضايقين من شدة الحر لدرجة لم يتمكنا معها من تناول الطعام . كان عليهما أن يبذلا مجهودا لابتلاع بعض قطع من اللحم وبعض جرعات من الماء الذى لاطعم له ، وذلك على كره منهما ، ورغبة منهما فى أن يتركا لأمهما الفرصة لتستعيد قواها ، كفا عن الحديث ، وما كان عندهما ميل إليه ، وأخذا ينظران ناحية النافذة .

اهتزت السيدة جنان فجأة وتشبثت بالمائدة ، ونظرت إلى ولديها ثم أصدرت أنينا وانهارت . اندفع أوليفييه وأنطوانييت فى الوقت المناسب ليتلقاها كل منهما بين ذراعيه وأخذا يصرخان ويستنجدان كالمجانين :

- أمى ، أمى الحبيبة .

ولكن الأم لم تعد تجيب ، فطار صوابهما ، وضمت أنطوانييت أمها بحركة عصبية وهى تقبلها وتناديها . وفتح أوليفييه باب الشقة وصرخ :

- النجدة !

صعدت زوجة البواب سلم المنزل قفزا ، وعندما تبينت الأمر أسرعت تستغيث بطبيب من الجيران . ولكنه لم يستطع عند وصوله أن يفعل شيئا ، وقرر أن كل شيء قد انتهى ، كان الموت - لحسن حظ السيدة جنان - مفاجئا . ولكن من يستطيع أن يعرف ماكان يدور بخلدها فى لحظاتها الأخيرة وهى ترى نفسها تموت تاركة ولديها وحيدين للشقاء !

تحملا وحدهما الكارثة ، وبكيا وحدهما ، وأشرفا وحدهما على الترتيبات البشعة التى تتبع الوفاة . كانت زوجة البواب امرأة طيبة فساعدتهما قليلا ، وتلقيا من مدرسة الراهبات - حيث كانت تعمل أمها - بعض عبارات فاترة من المواساة .

غمر اليأس لحظاتها الأولى بشكل لا يوصف ولم ينقذهما من اليأس إلا

تماديهما فيه، مما أدى بأولفييه إلى حالات تشنجية حقيقية . وشغلت أنطوانييت عن الأم ولم تعد تفكر إلا فى أخيها . وتغلغل حبها العميق فى نفس أوليفييه ، انتشلته من الحالات النفسية الخطيرة حيث كاد الألم يودى به . واقترب الصغيران معا من السرير الذى كانت ترقد عليه أمهما ، تحت ضوء مصباح خافت ، وأخذ أوليفييه يردد أنه لابد من أن يموتا معا ، وأن يموتا فى الحال . وأشار إلى النافذة ، وشعرت أنطوانييت أيضا بهذه الرغبة التعسة ، ولكنها قاومتها ، فقد كانت تريد الحياة .

– لماذا ؟

وأجابت أنطوانييت وهى تشير إلى أمها :

– من أجلها . إنها ماتزال معنا فكرًا ، بعد كل ماقاست من أجلنا ، يجب أن نوفر عليها ألم رؤيتنا نموت تعساء . ثم تنهدت بانفعال وهى تضيف :

– يجب ألا نستسلم هكذا . . إننى أرفض – إننى أثور أخيرا . . أريدك أن تصبح سعيدا فى يوم من الأيام .

– مستحيل !

– نعم ستصبح سعيدا . لقينا من المصائب أكثر مما نحتمل ، ولكن ذلك سيتغير ، يجب أن يتغير ، ستكون نفسك ، وستصبح لك أسرة ستظفر بالسعادة ، إننى أريد ذلك ، أنا أريده !

– كيف نعيش ؟ لن نستطيع ذلك أبدا !

– سنستطيع ذلك ، ماذا يلزمنا؟ أن تتمكن من البقاء حتى تكسب أنت عيشك – إننى أتكفل بهذه المهمة ، وسترى أننى سأتمكن من ذلك . آه! لو تركتنى أمى أعمل لكنت استطعت الآن . .

- ماذا تريدين أن تفعلى ؟ لاأريدك أن تأتى أفعالا مشينة . وعلى كل حال لن تستطيعى .

- أستطيع . وليس هناك مايشين فى كسب العيش عن طريق العمل مادام شريفا ، أرجوك ألا تقلق يا أوليفييه . سترى أن كل شيء سيسوى ، وأنك ستصبح سعيدا ، فنحن الاثنان ستصبح سعيدين ياأوليفييه ، وأيضا أمنا ، ستصبح سعيدة بنا .

سارا وحدهما وراء نعش أمهما ، كانا قد اتفقا فيما بينهما على ألا يقولا شيئا لأسرة بوابيه ، فلم يعد لها وجود بالنسبة إليهما ، بعد أن أظهرت قسوة لا متناهية نحو أمهما ، وكانت سببا من أسباب موتها ، ولما سألتهما زوجة البواب إذا كان لهما أقارب ، أجاباها :

- لا أحد .

صليا أمام القبر المفتوح وأمسك كل منهما بيد الآخر . تجلدا وفضلا فى إصرار وكبرياء يائسين الوحدة على وجود أقارب منافقين لا يهتمون بهما . عادا مشيا على الأقدام وسط هذا الجمهور الغريب عن حزنهما ، وأفكارهما ووجودهما كله . جمهور لايربطه بهما إلا اللغة التى يتحدثان بها ، وتأبطت أنطوانيت ذراع أوليفييه أثناء عودتهما .

استأجرا شقة صغيرة فى الطابق الأخير من المنزل ، مكونة من حجرتين علويتين وحجرة صغيرة ، كان عليهما أن يستعملاها كغرفة للطعام ، ومطبخ لايزيد حجمه على حجم دولاب مطبخ ، كان في إمكانهما إيجاد مسكن أفضل من هذا فى حى آخر ، لولا أنهما كانا يشعران أنهما هنا لايزالان مع أمهما ، وأظهرت لهما زوجة البواب اهتماما مبعثه الشفقة ، لكن سرعان ما

شغلت عنهما بأعمالها الخاصة . ولم يعد أحد يهتم بهما ، فلا أحد من سكان المنزل يعرفهما ، ولا هما كانا يعرفان من يسكن بجوارهما .

توصلت أنطوانييت إلى العمل محل أمها كمدرسة للموسيقا بمدرسة الراهبات ، وبحثت عن دروس أخرى تعطيها إلى جانب عملها . كان كل همها أن تربى أخاها حتى يستطيع أن يلتحق بمدرسة المعلمين . قررت ذلك وحدها . ودرست البرامج . قامت بالاستعلام ، ثم حاولت أن تحصل أيضا على رأى أوليفييه ، ولم يكن له رأى قط ، كانت هى التى اختارت له ، فإن قبوله بمدرسة المعلمين يضمن له عيشة بقية حياته ، ويصبح سيد مستقبله . كان يجب أن يصل إلى تلك المدرسة ، وكان على الأخوين أن يعيشا مهما كلفهما ذلك حتى يصل أوليفييه إلى هدفه بعد خمس سنوات أو ست مليئة بالقسوة ، ولكنهما سوف يتغلبان عليها . ، وقويت هذه الفكرة لدى أنطوانييت حتى اقتنعت تماما بها . فحياة البؤس والوحدة التى كانت مقبلة عليها والتى رأتها بوضوح تمر أمامها لن تكون محتملة إلا بفضل حماستها الشديدة الملحة فى أن تنقذ أخاها ، وأن تجعله يصبح سعيدا حتى ولو لم يعد فى استطاعتها هى أن تصبح سعيدة . هذه الفتاة الصغيرة الساذجة العطوف التى لم تتجاوز السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمرها تغيرت تماما بعدأن اتخذت قرارها الباسل . كانت تعمل رغبة فى التضحية وتزداد كبرياء أمام الصراع ، ولم يكن فى استطاعة أحد أن يتصور مثل هذه المشاعر . هى نفسها كانت آخر من يستطيع تصورها . فى هذه الفترة الحرجة من حياة المرأة التى تشبه أول أيام الربيع النابضة بالحرارة ، حيث تسيطر عاطفة الحب على الإنسان وتغمره كأنه نهر خفى يصطخب فى بطن الأرض ، تلك العاطفة التى تلفه وتغرقه وتتركه فى حالة دائمة من الوسوسة ، فى هذه الفترة يأخذ الحب مختلف الأشكال ، فمن تسيطر عليه قوى الحب لا يطلب

إلا أن يهب نفسه ويقدمها قربانا ، ملتمسا لذلك شتى الأعذار . فالمشاعر الغريزية البريئة العميقة كثيرا ماتتطور إلى تضحيات . وهكذا جعل الحب من أنطوانيت فريسة للصداقة .

أما أخوها الذى لم يكن شديد العاطفة مثلها فلم تتملكه تلك القوى الدافعة . وأما التضحية فكانت من أجله هو ، ولم يكن هو الذى يقوم بالتضحية ، وهو أمر أيسر بالنسبة لمن يحب . وعلى العكس كان أوليفييه يشعر بتأنيب ضمير عندما يرى أخته وقد أضناها التعب ، كان يصرح لها بذلك فترد عليه . :

– آه ياصغيرى المسكين ! ألاترى أن هذا هو الذى يجعلنى أعيش ؟ وهل هناك دافع لى غير ذلك التعب الذى أبذله من أجلك ؟

كان يفهم ذلك جيدا . ولو كان محل أنطوانييت لحرص أيضا على هذا التعب المحبب إلى النفس . أما أن يكون هو سبب ذلك التعب ، فإن كبرياءه وقلبه ليتألمان لذلك ، وياله من عبء مضن بالنسبة لإنسان ضعيف مثله أن يتحمل المسئولية التى أثقل بها كاهله . كان لزاما عليه أن ينجح مادامت أخته قد قامرت بحياتها على هذا الأمل ، لم يكن أبدا يستطيع أن يتحمل مثل هذه الفكرة التى بدلا من أن تضاعف قواه ، كانت تضنيه فى بعض الأحيان ، ومع ذلك أرغمته تلك الفكرة على أن يقاوم ، وعلى أن يعمل ، وعلى أن يعيش ، وهذا مالم يكن فى مقدرته لو لم يجد نفسه مضطرا إليه . كان لديه استعداد للهزيمة ، وربما للانتحار ، بل ربما انتهى إلى ذلك لو لم تكن أخته أرادت له الطموح والسعادة . كان يؤلمه أن يخضع لغير طبيعته ومع ذلك فهذا هو السبيل الوحيد إلى إنقاذه . كان هو أيضا يجتاز مرحلة خطيرة من الحياة ، هذه المرحلة المخيفة التى يسقط فيها ملايين من الشبان الذين يستسلمون لخداع حواسهم ، ويضحون نهائيا بكل حياتهم فى

سبيل عامين أو ثلاثة من الملذات . ولو وجد أوليفييه متسعا من الوقت يستسلم فيه لأفكاره لوقع فى اليأس أو الانحلال . كان كلما وجد فرصة يتأمل فيها نفسه انشغل بأوهامه المريضة بالنفور من الحياة ومن باريس ومن اختلاط هؤلاء الملايين من البشر اختلاطا تفوح منه رائحة عفنة . ولكن كان مجرد رؤيته لأخته كفيلة بتبديد هذا الكابوس ، وبما أنها لا تعيش إلا من أجله فسيقبل الحياة ، نعم ، سيصبح سعيدا على الرغم منه .

شيدت حياتها على أساس إيمان عميق قوامه التصوف والتدين والطموح الرفيع ، واتجه الأخوان بكل كيانهما نحو هذا الهدف الأوحد ، نجاح أوليفييه . قبلت أنطوانييت أن تقوم بأى عمل ، رضيت بالمذلات جميعا ، اشتغلت مدرسة للأطفال فى بيوت عوملت بها معاملة تشبه معاملة الخدم ، كان عليها أن تحرس تلميذاتها فى نزهاتهن كأنها خادمة ، وأن تسير معهن ساعات طوالا فى الطرقات ، على الرغم أنها تعلمهم اللغة الألمانية ، إن حبها لأخيها وكبرياءها أيضا ، جعلاها تجد عذوبة فى هذه الآلام النفسية وفى تلك المتاعب .

كانت تعود إلى المنزل مرهقة ؛ لتعنى بأوليفييه الذى يقضى يومه فى الليسيه كنصف داخلية ، ولا يعود منها إلا فى المساء . كانت تعد العشاء على موقد غازى أو على موقد كحولى ، وكان أوليفييه لايشعر بالجوع أبدا ، يتأفف من كل شيء ويسبب له اللحم النفور ، وكان لابد من دفعه على الأكل أوالتحايل عليه بأصناف لذيذة تعجبه . ولم تكن أنطوانييت المسكينة طاهية ماهرة ، ولم يكن يكدرها بعد أن تبذل كل جهودها فى إعداد الطعام أن يصرح أمامها أن طعامها لايؤكل ، ولم تصل إلى نتيجة ما إلا بعد أن يئست مرات عديدة أمام موقدها فى المطبخ ، هذا اليأس الصامت الذى

تعرفه ربات البيوت الصغيرات غير الماهرات يسمم أيامهن وأحيانا لياليهن دون أن يشعر أحد بأمرهن

وبعد العشاء تنتهى أنطوانييت من تنظيف الأوانى القليلة التى استعملاها رافضة مساعدة أخيها كلما حاول ، ثم تهتم بدروس أخيها اهتمام الأم بولدها ، فتستذكر له تلك الدروس ، وتراجع واجباته ، بل تساعده أيضا فى بعض أبحاثه ، وهى حريصة على ألا تجرح شعور هذا الإنسان الصغير الشديد الحساسية .

كانا يقضيان الأمسية حول المنضدة الوحيدة التى يملكانها والتى يستعملانها للطعام والكتابة معا . وبينما كان أوليفييه يكتب واجباته كانت تقوم هى بالحياكة أو تفسخ بعض الأوراق ، وعندما يكون نائما تهتم بإصلاح ملابسه أو تؤدى بعض أعمالها هى .

وبالرغم مما يصادفهما فى تصريف أمورهما من عقبات فقد قررا أن كل ما ينجحان فى ادخاره سيستخدمانه قبل كل شىء فى التحرر من الدين الذى كانت أمهما قد اقترضته من أسرة بوابييه ، مع أنهما فى الواقع لم يشعرا بأن أسرة بوابييه من أولئك الذين يلاحقون مدينيهم بمضايقاتهم ، بل إن أحدا منهم لم يحاول رؤية آل جنان ، وأصبحوا لا يفكرون فى هذا المال الذى ظنوه قد فقد نهائيا ، كانوا يعتبرون أنفسهم فى منتهى السعادة إذ تخلصوا من أقاربهم المحرجين بهذا الثمن ، ولكن كبرياء الولدين وعاطفة البنوة عندهما جعلتهما يتألمان من أن تكون أمهما مدينة بشىء لهؤلاء الناس الذين يحتقرونها . حرما نفسيهما وادخرا على حساب أبسط مايحق لهما من تسليات وعلى حساب ملابسهما وطعامهما حتى يصلا إلى جمع المائتى فرنك ، وهو مبلغ هائل بالنسبة لهما ودت أنطوانييت لو حرمت نفسها وحدها ، ولكن عندما اكتشف أخوها عزمها لم يمعنه شىء من أن يحذو حذوها . أضنيا نفسيهما فى

سبيل هذه الغاية ، وكان يسعدها أن يدخرا بضعة سنتيمات كل يوم .

تحملا شدة الحرمان فتوصلا إلى جمع المبلغ سنتيما بعد سنتيم فى مدة ثلاث سنوات ، كانت فرصة كبيرة ، ذهبت أنطوانيت فى إحدى الأمسيات إلى أسرة بوابيه واستقبلت بدون ترحيب ، فقد ظنوا أنها جاءت تطلب المساعدة ، ورأوا من الأفضل لهم أن يبادروا بلومها بطريقة جافة ؛ لأنها لم تزودهم بأى أخبار عن أسرتهم ، ولم تبلغهم حتى بنبأ وفاة أمها ، ولأنها لاتأتى إلا حينما تكون فى حاجة إليهم . قاطعتهم قائلة : إنها لاتنوى إزعاجهم وإنما أتت لتعيد إليهم ما اقترضته أمها منهم . وضعت الورقتين الماليتين على المنضدة ، وطلبت منهم مخالصة بالدين . وفى الحال تغيرت معاملتهم وتظاهروا بعدم رغبتهم فى قبول المبلغ . كانوا يشعرون نحوها بهذا النوع من العطف الفجائى الذى يشعر به الدائن نحو المدين عندما يرد إليه بعد سنوات ديناً فقد الامل فيه . حاولوا يعرفوا اين تسكن مع أخيها وكيف يعيشان . تجنبت الرد وعادت تطالب بالإيصال ، ثم قالت : إنها ترغب فى الانصراف ، فحيتهم تحية باردة ثم انصرفت . شعر أفراد الاسرة بغضب شديد نحو هذه الفتاة الناكرة للجميل .

وجدت أنطوانيت نفسها قد تحررت من هذا الكابوس . عادت لتواصل حياة الحرمان ، ولكن من أجل أوليفييه ، كانت تبالغ فى إخفاء ذلك حتى لايراها وقد أخذت تدخر على حساب زينتها ، وأحيانا على حساب طعامها من أجل مظهر أخيها وتسليته ، ولكى تزين له الحياة وتجعلها أكثر عذوبة فعلت ذلك أيضا لتمكنه من حين لآخر من الذهاب إلى الحفلات الموسيقية ، بل إلى الاوبرا التى يعتبرها سعادته الكبرى . وما كان يرغب فى الذهاب إلى تلك الحفلات بدون أخته ، ولكنها كانت تخلق أعذارا تتخلص بها من الذهاب معه تريح بها ضميره : تدعى أنها متعبة أو أنها لاتشعر

بالرغبة فى الخروج ، وأن تلك الحفلات تضايقها . ولم يكن يصدق مع هذه الأكاذيب التى يولدها حب اخته له ، ولكن أنانية الصغير كانت تتغلب فى نهاية الأمر. كان يذهب إلى المسرح فلا يكاد يجلس هناك حتى تعاوده هواجسه ، كان يفكر فيها طوال العرض فيفسد عليه ذلك سعادته ، وفى يوم أحد أرسلته لحضور حفل موسيقا فى مسرح الشايتليه ، فإذا به يعود بعد نصف ساعة قائلا لها : إنه لم يجد الشجاعة ـ وقد وصل إلى كوبرى سان ميشيل ـ لأن يواصل طريقه . لم يعد ذلك الحفل الموسيقى يعجب ؛ إذ أنه أصبح يتألم كثيرا لعدم مشاركتها إياه فى السرور . ولم يكن هنال شىء أحب إلى نفس أنطوانييت مما سمعت ، على الرغم من أسفها لحرمان أخيها بسببها من تسلية يوم الأحد . ولكن أوليفييه لم يفكر فى هذا الأسف . وحين رأى عند عودته وجه أخته يتهلل بفرحة تحاول دون جدوى أن تخفيها ، شعر بأنه أكثر سعادة مما لو كان قد استمع إلى أجمل موسيقا فى العالم . وقضيا فترة مابعد الظهيرة جالسين كل أمام الآخر ، إلى جانب النافذة : هذا بكتاب فى يده ، وهى بأشغال الإبرة ، لا هو يقرأ ، ولاهى تعمل ، ولكنهما كانا يتحدثان عن أشياء تافهة لاتهمه ولاتهمها . . ومع ذلك فلم يجدا أجمل من هذا الأحد ، واتفقا على ألا يعودا إلى الافتراق من أجل حفلات الموسيقا ، فقد أصبح كل منهما عاجزا عن الحصول على السعادة بمفرده .

نجحت فى أن تدخر فى الخفاء مايكفى من المال لتفاجىء أوليفييه بأن تقدم له بيانو تؤجره له . وبطريقة تقسيط معينة يصبح ملكا خالصا له فى خلال عدة شهور . وياله من حمل ثقيل أضافته إلى حملها ! . . فهى استحقاقات بالنسبة لها كالكابوس تفسد صحتها بحثا عن المال اللازم ، ولكن كم حققت لها هذه الحركة الجنونية من سعادة ؛ فالموسيقا كانت جنتها فى هذه الحياة القاسية ، لقد احتلت مكانا ضخما من حياتهما ولاذا بها لينسيا متاعب الدنيا ، ولم يكن ذلك خطرًا ؛ فالموسيقا من أمضى المؤثرات الحديثة

على النفس البشرية ، فهى تملأ النفس بخمول دافىء أو بما يشبه جو الخريف المثير فتصحو المشاعر ، وكانت متنفسا لروح مكرهة على عمل مفرط لابهجة فيه مثل عمل أنطوانييت ، وكان حفل الأحد الموسيقى كالضوء الوحيد الذى يتلألأ بعد أسبوع من العمل المتواصل .كانا يعيشان على ذكرى آخر حفل موسيقى ذهبا إليه ، وعلى أمل الحفل المقبل ، على هاتين الساعتين أو الثلاث الساعات التى يقضيانها على هامش الزمن ، بعيدًا عن باريس ، وفى انتظار طويل خارج المسرح تحت المطر أو الثلج المتساقط ، فى البرد أو الهواء جنبا إلى جنب ، وهما يرتعدان خوفا من ألا يجد أماكن ، كانا يسارعان بالدخول إلى المسرح يجلسان فى أماكن ضيقة مظلمة حيث يضيعان وسط الزحام . كانا يختنقان ويدهمهما الناس ويكادان يغمى عليهما من شدة الحر والضيق ، ولكنهما كانا سعيدين ، وكان كل منهما سعيدا بسعادته وسعادة الآخر ، وكم كان يسعدهما أن يمتلىء قلباهما بالمحبة والنور والقوة التى تتدفق من روح بتتهوفن وفاجنر الكبيرين . كل منهما كان سعيدا بأن يرى وجه أخيه يضىء ، بعد أن أضناهما التعب والهموم السابقة لأوانها . وكانت أنطوانيت تشعر بمنتهى التعب ،فتلقى بنفسها فى العش الدافىء اللذيذ كأنما هى بين يدى أم تضمها إلى صدرها وتبكى فى صمت ، فيأخذ أوليفييه يضغط على يدها . لم يكن يلتفت إليها أحد فى ظلام المسرح الضخم الذى لم يكونا الوحيدين فيه بين الارواح المعذبة التى تلجأ إلى حنان الموسيقا الذى يشبه حنان الأم .

كانت أنطوانييت متدينة إلى درجة كبيرة ، إذ أن الدين إلى جانب الموسيقا كانا يعينانها على الحياة . لم يفتها أبدا أداء صلوات طويلة حارة كل يوم ، كما لم تهمل الذهاب إلى الكنيسة كل أحد . ووسط هذه الحياة المليئة بالتعاسة الظالمة لم تستطع أن تمنع نفسها من الإيمان بحب الإله الذى يرحمنا ، وكانت

على صلة قوية بمن فقدتهم، فقد كانت تشركهم معها فى كل محنها ، ولكنها كانت ذات روح متحررة وعقل قوى، مما جعلها تبتعد عن باقى الكاثوليك الذين كانوا ينظرون إليها نظرة بعيدة عن الرضا ، والذين وجدوا فيها روحا شريرة ، فلم يكن إيمانها عن انقياد كالقطيع ، ولكن كان عن محبة .

أما أوليفييه فلم يكن مثلها ، تعذب كثيرا لذلك رغم أنه اجتاز أزمات نفسية شديدة ، ولكنه كان يحتفظ بقلب متصوف ؛ لذا عاش الاثنان فى جو دينى . كل منهما يعود فى المساء بعد فراقهما طوال اليوم ، فتبدو لهما شقتهما الصغيرة كالميناء ، كالملجأ الحصين ، فقيرة باردة إلا أنها ظاهرة بالرغم من ذلك ، لكم كانا يشعران وهما فيها بأنهما بعيدان عن أفكار باريس الفاسدة !

لم يتعودا التحدث كثيرا فيما يكونان قد فعلاه، فعندما يعود الإنسان منهكاً إلى منزله لايملك القوة ليعيش يومه الشاق مرة أخرى وهو يتحدث عنه ؛ ولهذا يحاولان جهدهما بطريقة لا إرادية أن ينسيا . كانا يحرصان على عدم طرح الأسئلة ، خاصة فى الساعة الأولى لعودتهما عندما يلتقيان على العشاء . كانا يتبادلان التحية بالنظر ، وأحيانا لاينطقان بكلمة واحدة أثناء الطعام ، وتنظر أنطوانييت إلى أخيها الذى يترك طعامه ويستسلم لأحلامه كما كان يفعل من قبل عندما كان صغيرا ، وتداعب يده بلطف وتقول وهى تبتسم :

- هيا تشجع !

يبتسم ويستأنف طعامه وينتهى العشاء دون أن يبذلا أى محاولة للحديث . كانا متعطشين إلى الصمت ، ولاتنحل عقدة لسانيهما إلا فى نهاية الطعام ، وذلك عندما يشعران بالراحة ، ويكون كل منهما وقد أحاطت به عاطفة الأخوة قد أزال عن نفسه آثار النهار البغيضة .

ويجلس أوليفييه أمام البيانو فيما تعودت أنطوانيت أن تترك البيانو ليعزف هو عليه ، إذ كانت تسليته الوحيدة ، فاستسلم له بكل مافيه من قوة

لقد خلق للموسيقا ، إن طبيعته الأنثوية تؤهله لأن يحب لا لأن يعمل ، كانت تمتزج بأفكار الموسيقيين الذين يعزف لهم ، وعذوب مع تلك الأفكار وتؤدى أدق معانيها بإخلاص ينبعث من العاطفة ، بقد ماتسمح له على الأقل ذراعاه وطبيعته الضعيفة ، فكان ينهكه المجهود الهائل الذى يستلزمه عزف موسيقا تريستان أو السونات الأخيرة لبتهوفن . وهكذا كان يفضل الالتجاء إلى موسيقا موزار وجلوك التى كانت أنطوانيت تفضلها هى الأخرى .

كانت تغنى هى أيضا أحيانا ، ولكن أغنيات بسيطة للغاية لألحان قديمة كان صوتها من نوع الميتزو ذى النبرات المشوبة الحزينة المرتعشة ، كانت تخجل لدرجة لاتستطيع معها الغناء أمام أحد . حتى أوليفييه كانت تجد صعوبة فى الغناء أمامه ويكاد صوتها يختنق . وكان لحن بتهوفن فى الأغنية الإسكتلندية من الألحان المحببة إليها ؛ فهو وديع ورقيق كاسمه . «جونى الوفى » . . فهو يشبهها ، ولم يكن أوليفييه يستطيع أن يسمعها تغنى هذه الأغنية دون أن تترقرق عيناه بالدموع .

أما هى فكانت تفضل سماع أخيها ، كانت تسرع فى إنجاز أعمالها المنزلية ، وتترك باب المطبخ ؛ ليتاح لها أن تسمع أوليفييه جيدا ، وبالرغم من احتياطاتها أثناء العمل كان يشكو بعد أن ينفد صبره من الضجة التى تحدثها وهى تعيد الأوانى إلى مكانها ، حينئذ كانت تغلق الباب ، وعندما تنتهى من عملها تعود لتجلس على كرسى منخفض لا بالقرب من البيانو ، فأوليفييه لايطيق رؤية أحد بجانبه عند العزف ، ولكن قريبا من المدفأة وفى هذا المكان ، كقطة صغيرة تكومت على نفسها تدير أنطوانييت ظهرها

للبيانو، وقد تعلقت عيناها بعيون الموقد الذهبية ،حيث تحترق قطعة من الفحم فى صمت، وتستسلم لصور الماضى . وعندما تعلن الساعة التاسعة تكون فى حاجة إلى جهد؛ لكى تذكر أوليفييه بأن الوقت قد حان للكف عن العزف . وكان من الصعب حمله على ترك موسيقاه ،كما كان من الصعب عليها التخلص من أحلامها . وكان لزاما على أوليفييه أن يستأنف عمله الدراسى فى المساء دون أن يمتد به السهر، ولم يكن يطيع أخته على الفور لحاجته إلى بعض الوقت لكى يستطيع بعد الانتهاء من موسيقاه أن يعود إلى العمل . ويسبح بعيداً بأفكاره وتدق الساعة معلنة النصف أحيانا قبل أن ينتشل نفسه من عالم الأحلام ،وكانت أنطوانيت وهى منكبة على أشغال التطريز فى الناحية الأخرى من المنضدة ، تعرف أنه يعمل شيئا ،ولكنها لاتجرؤ على أن تنظر كثيرا إلى ناحيته خوفا من أن يتضايق إذا شعر بمراقبتها له .

كان فى سن المراهقة ، سن السعادة ، حيث تمر الأيام الحائرة ، كان ذا جبين نقى وعينين كعيون الفتيات ،نظراته حريئة وساذجة، وكثيرا ماتحيط به هالة من التعب .وكان ذا فم كبير وشفاه منتفخة كشفتى الطفل الرضيع،ذات ابتسامة حائرة ، غامضة تائهة ، شاردة ، أما شعره فكان غزيرا ينزل حتى عينيه ويؤلف وفرة على قفاه مع خصلة عنيدة منتصبة ، وحول رقبته رباط مسترخ قليلا ،مع أن أخته هى التى كانت تعقده له بعناية كل صباح .وأما سترته فما كانت تثبت له أزرار بالرغم من أن أنطوايئيت تضيع وقتا طويلا فى تثبيتها ،ولم يكن يضع للأكمام أهدابًا ، وكان ذا يدين كبيرتين وقبضتين عظامهما بارزه .

كان أوليفييه يبدو ساخرا ناعسا مستسلما لحواسه وهو يحملق فى الفضاء، أما عيناه اللتان تنتقلان بين الأشياء فكانتا تدوران حول غرفة أنطوانيت

حيث المنضدة التى يعملان عليها . وتنسكعان على السير الحديدى الصغير الذى علق فوقه صليب من العاج مع غصن من البقس، وعلى صورتى أبيه وأمه، وعلى منظر قديم يمثل بلدتها الريفية الصغيرة ببرجها ومياهها اللامعة، وعندما تسقط عيناه على وجه أختنا الشاحب وهى تعمل بصمت كان يحس بشفقة هائلة عليها وبثورة على نفسه، فينتفض متضايقا من تكاسله ، ثم يعمل بنشاط ليعوض الوقت الذى أضاعه .

كان يقرأ خلال العطلات ، كان كل منهما يقرأ وحده ؛ إذ أنهما - على الرغم من حب أحدهما للآخر - لم يكونا يستطيعان قراءة كتاب واحد بصوت عال ؛ لأن ذلك يجرح شعورهما كما لو كان فيه مايخدش الحياء . وكان يبدو لهما أن الكتاب النفيس سر لا تفوه به الشفاه، لكن تتحدث به القلوب . وعندما تستهوى أحدهما صفحة ما، كان بدلا من أن يقرأها للآخر يعطيه الكتاب مشيرا بأصبعه على الجزء المقصود ، وبينما كان أحدهما يقرأ كان الآخر يتابع بعينين لامعتين مايطرأ على وجه أخيه من مشاعر ويشاركه فيها . كانا يجلسان متكئين أمام كتابيهما لا يقرأان ، وإنما يتسامران . ولكم تغلغل الليل كلما احتاجا إلى أن يبوحا بما فى نفسيهما وبدا يتلاشى ماكانا يجدان من الصعوبة فى الحديث . وكانت تتسلط على أوليفييه أفكار حزينة، وكان على هذا الإنسان الضعيف أن يتخلص دائما من آلامه بأن يفرغها فى صدر إنسان آخر ، وكانت الشكوك تعذبه دائما ، وكان على أنطوانيت أن تعيد إليه شجاعته وأن تحميه مما يساوره : معركة لا تنتهى ، وتتجدد كل يوم، ويبوح أوليفييه بأشياء مريرة ومحزنة ، لايكاد يبوح بها حتى يشعر بالارتياح ، ولايهمه بعد ذلك أن يعرف ما إذا كان قد أثقل على أخته بما باح إليها به . ولقد مضت مدة طويلة قبل أن يلاحظ كيف كان يضنيها ويسلبها قوتها وينقل إليها شكوكه شيئا فشيئا . ولم تظهر أنطوانيت شيئا ، كانت

شجاعة بشوشة بطبيعتها ، تضغط على نفسها ؛ لتحتفظ ببشاشتها فى الظاهر فى حين أنها فقدت مرحها من زمن . كانت تشعر فى بعض الأحيان بملل شديد ، بثورة ضد حياة التضحية التى وهبتها نفسها ؛ ولكنها كانت تريد القضاء على تلك الأفكار، وترفض أن تتعمق فيها ، فهى تعانى منها دون أن ترضى بها . وكانت تستأنس بالصلاة إلا حينما لا يستطيع القلب أن يقوم بأدائها ، وقد يحدث هذا عندما يجف القلب تحت وطأة الآلام . حينئذ لايبقى أمامها إلا أن تنتظر صامتة محمومة خجولة ـ رحمة الله . ولم يدر بذهن أوليفييه شيء من هذه الهواجس أبدا ، أما أنطوانيت فعندما تمر بهذه الأزمات تبحث عن عذرما لتخلو لنفسها وتنفرد فى غرفتها، ولاتظهر إلا عندما تكون الأزمة قد مرت ، وعندئذ تبدو ابتسامتها وعليها آثار الألم أكثر رقة من ذى قبل، كأنما تؤنب نفسها لاستسلامها للعذاب

كانت غرفتاهما متجاورتين وسريراهما لايفصلهما إلا حائط واحد . وكان فى استطاعتهما أن يتحادثا من خلاله بصوت خفيض ، وعندما يشعران بالأرق كانت بعض طرقات خفيفة على الحائط تقول :

– هل أنت نائم ؟ فأنا لم أنم .

وكان الجدار بينهما رقيقا لدرجة جعلتهما كصديقين طاهرين ينامان جنبا إلى جنب على سرير واحد ، ولكن الباب الذى يفصل بين الغرفتين كان دائما مغلقا فى الليل بدافع من الخجل الفطرى الخالص ، وهو شعور مقدس لديهما ، ولايظل هذا الباب مفتوحا إلا فى حالة مرض أوليفييه ، وماأكثر مايحدث ذلك .

لم يكن أوليفييه يسترد مايفقد من صحته ، بل يبدو أن صحته كانت فى تقهقر مستمر . كان يشكو دائما من آلام فى حنجرته ، وفى صدره ، فى رأسه وفى قلبه . فإن رشحا بسيطا كان كافيا لأن يعرضه للأصابة بالتهاب رئوى ،

وقد أصيب بالحمى القرمزية وكادت تودى به ، وكانت تبدو عليه أعراض غريبة لأمراض خطيرة ، ولكن دون أن يصاب بها فعلا ، وكثيرا ماشعر بالآم حادة فى الصدر أو فى القلب قرر الطبيب الذى فحصه بأنه مصاب بالتهاب فى الغشاء الرئوى . وأكد الطبيب الإخصائى الكبير الذى استشير بعد ذلك صحة التشخيص . ومع ذلك فلم يصب أوليفييه بشىء من هذا ، كان دائما مصابا باضطراب فى الأعصاب . وهذا النوع من الآلام يتخذ عادة أشكالا لاتخطر ببال أحد ، وإن كانت لاتكلف الإنسان سوى أيام من القلق ، ولكن كم هى قاسية بالنسبة لأنطوانيت ! وكم مرت بها من ليال وهى ساهرة !

كانت ترتعد خوفا عندما تقوم من سريرها لتنصت بجانب الباب إلى أنفاس أخيها معتقدة أنه أوشك على الموت ، كانت على يقين من ذلك ، بل كانت متأكدة منه ، وعندئذ كانت تنتفض وتضم يديها بشدة وتعقدهما على فمها حتى تمنع نفسها من الصراخ .

– ياإلهى . . لا تأخذه منى لا . . أتوسل إليك . . إنى اتوسل إليك ! آه ياأمى العزيزة ! تعالى لنجدتى ! يارب أنقذ أخى . . دعه يعيش !

وتقف منتصبة إلى أعلى وهى تقول :

– آه ، كيف يموت فى منتصف الطريق ، بعد كل ماحققناه ، بعد أن أوشكنا على الوصول إلى هدفنا ، وبعد أن أوشك أوليفييه أن يدرك السعادة . لا ، لا يمكن أن يموت . . إنها قسوة ، قسوة لا يمكن تحملها .

بدأ أوليفييه يسبب لها هموما أخرى ، كان شريفا مثلها ، ولكنه ضعيف الإرادة ، كانت أفكاره الحرة إلى أقصى حد والمعقدة فى الوقت نفسه ، تجعله مبلبلا يشك فى كل شىء ، يتساهل فيما يجهله وتجذبه الملذات إليها . وكانت

أنطوانيت على درجة من الطهارة جعلتها لاتفهم مايدور فى ذهن أخيها إلا بعد زمن طويل . وفى يوم اكتشفت حقيقة الأمر فجأة .

ظن أوليفييه أن شقيقته غادرت المنزل ، فهى تعودت أن تخرج فى تلك الساعة لإعطاء الدروس ، إلا أنه حدث فى ذلك اليوم أن تلقت فى اللحظة الأخيرة كلمة من تلميذتها تخطرها فيها بأنها ستستغنى عن الدرس فى ذلك اليوم ، وبالرغم من أن إلغاء هذا الدرس كان ينقص بضع فرنكات من ميزانيتها الضئيلة فقد سرت أنطوانيت لذلك فى قرارة نفسها . كانت تشعر بسأم شديد ، فتمددت على سريرها ، وشعرت بسعادة ؛ لأنها تمكنت من الراحة يوما دون أن يقر فيها ضميرها . وعاد أوليفييه من الليسيه بصحبته أحد زملائه ، وجلسا فى الغرفة المجاورة يتجاذبان أطراف الحديث . كان كل مايقولان مسموعا ، كانا يتكلمان بحرية تامة ظنا منهما أن المنزل ليس به أحد ، وظلت أنطوانيت تنصت باسمة إلى صوت أخيها المرح ، ولكنها بعد قليل توقفت عن الابتسام وجمد الدم فى عروقها ، فقد أخذ الشابان يتحدثان فى موضوعات غليظة معبرين عن ذلك بجرأة فاحشة ، وبدا عليهما التلذذ من الحديث ، وسمعت أنطوانييت ضحكة أوليفييه صغيرها ، والكلمات البذئية تخرج من بين شفتيه هاتين الشفتين اللتين كانت تعتقد حتى الآن أنهما برئيتان ، وشعرت بألم حاد يحز فى قلبها ، وكان هذا الموقف ولم يكف عن الكلام فى هذا الحديث الذى احتذبهما والذى لم تستطع هى أن تمنع نفسها من أن تستمع إليه . وأخيرا خرج الصديقان وبقيت أنطوانيت وحدها ، فبكت ؛ إذ أن شيئا مامن نفسها كان قد مات ، ألا وهى تلك الصورة المثالية التى كانت قد كونتها فيما سبق عن أخيها ، عن طفلها ، لقد تلوثت تلك الصورة ، وكان ذلك بالنسبة إليها عذابا مميتا . وعندما تقابلا

فى المساء لم تقل له شيئا ، ولاحظ أوليفييه أنها قد بكت، ولكنه لم يعرف السبب ، ولم يفهم لماذا غيرت أنطوانيت معاملتها إزاءه

واحتاجت هى إلى بعض الوقت حتى تتمالك نفسها وتعود إلى طبيعتها ، ولكن أشد ضربة سددها إليها أوليفييه كانت تلك التى جعلته لايعود إلى المنزل ذات مساء ، وسهرت أنطوانيت طوال الليل فى انتظاره، وكانت تتألم ألما لا يتوقف على الجانب الخلقى الطاهر منها ، بل كان ينفذ إلى الأعماق الغامضة من قلبها ، تلك الأعماق التى تضطرب فيها عواطف مهيبة كانت الفتاة تسدل عليها لئلا تراها حجابا لايباح كشفه .

وأهم مادفع أوليفييه إلى فعله هذا هو رغبته فى إثبات استقلاله ، وقد عاد فى الصباح متخذا مظهرا خاصا ، وعلى استعداد لأن يجيب أخته بوقاحة إذا ماأبدت له ملحوظة ما . فمرق إلى داخل الشقة على أطراف قدميه حتى لايوقظها ، ولكن عندما رآها واقفة تنتظره وقد بدا عليها الشحوب وظهرت آثار البكاء فى عينيها الحمراوين ، وهى تعد له طعام الإفطار قبل ذهابه إلى المدرسة فى صمت ، دون أن توجه إليه لوما أو تقول له أى شىء ، وهى شديدة الإعياء ، كما لو كانت تمتلىء بتأنيب تجاهه ، لم يتمالك نفسه ، فارتمى تحت قدميها ، مخبئا رأسه فى ردائها ، وبكى ، فأخذ الاثنان يبكيان معا . كان خجلا من نفسه مشمئزا من تلك الليلة التى قضاها يشعر أنه أصبح دنيئًا . أراد أن يتكلم ، ولكن أخته منعته من ذلك ، وضعت يدها على فمه فقبل تلك اليد . ولم يتلفظا بشىء . كانا متفاهمين تماما . أقسم بينه وبين نفسه أن تكون أخلاقه عند حسن ظن أنطوانيت ، أما هى فلم تستطع أن تنسى بسرعة ما ألم به من جرح ، فكانت كالمتعافية من مرض ، وأصبح بين الشقيقين عائق ما . لم يتزعزع حبه له ، ولكنها أصبحت ترى فى نفس أخيها شيئا غريبا عنها ، شيئا كانت تخشاه .

زاد من تأثرها إلى جانب ماااكتشفته فى نفس أوليفييه أنها فى تلك الفترة كانت تتألم من معاكسات بعض الرجال لها . فعند عودتها إلى المنزل فى المساء والليل يسدل أستاره ، خاصة عندما كانت تضطر للخروج بعد العشاء لإحضار الأوراق التى تقوم بنسخها أو إعادتها ، كانت تشعر باضطراب شديد عندما يدنو منها بعض الرجال أو يتابعونها أو يلقون على مسامعها عروضا فظة ، كانت تصطحب أخاها كلما أمكنه ذلك بحجة حضه على النزهة ، ولكنه لم يكن يوافقها بسهولة ، وكانت لاتجرؤ على الإلحاح ؛ لأنها لم تكن تريد إقلاقه فى عمله . ولم تستطع روحها الريفية الطاهرة أن تعتاد خصال العاصمة ؛ إذ أن باريس كانت ليلا بالنسبة لها كغابة فيها الوحوش الدنسة التى تطاردها ، فكانت ترتعد خوفا للخروج من مخبئها ، ولكنها كانت مضطرة لذلك . وكانت تتردد كثيرا قبل أن تتهيأ للخروج وتتألم لذلك دائما، وعندما كانت تفكر فى أن صغيرها أوليفييه سوف يصبح أو ربما كان مثل هؤلاء الرجال الذين يطاردونها يصعب عليها عند عودتها فى المساء أن تمد إليه يدها لمصافحته ، ولم يستطع أوليفييه أن يعرف سبب نفور أخته .

كانت أنطوانيت جذابة إلى درجة كبيرة دون أن تكون رائعة الجمال ، تجذب الأنظار دون أن ترغب فى ذلك . كانت فى لبسها غاية فى البساطة ، ترتدى ملابس الحداد فى أكثر الأوقات . لم تكن طويلة ، دائما كانت نحيفة رقيقة المظهر ، قليلة الكلام ، تمرق بين الناس بدون أن يشعر بها أحد ، تهرب من الأنظار وهى تجذب الأنظار بما فى عينيها المتعبتين وفمها الصغير الطاهر من عذوبة عميقة . كانت تلاحظ أحيانا إعجاب الناس بها فتخجل على شعور بالغبطة ، تعبيرا عن الدلال اللطيف العفيف الذى يتملك النفس . كان ذلك يظهر فى ارتباك بسيط فى حركاتها وفى نظرة خجولة ترسلها من طرف عينيها . وكان ذلك شيئا سارا ومؤثرا فى الوقت نفسه . هذا

الاضطراب كان يزيد من جاذبيتها . وكانت تستثير الرغبات لدرجة تجعل البعض لايخجل من مصارحتها بذلك، نظرا لأنها فتاة فقيرة ولا معين لها فى الحياة .

كانت تذهب أحيانا لزيارة إحدى عائلات الأثرياء ، آل ناتان ، الذين أظهروا لها اهتمامهم منذ قابلوها فى منزل أصدقاء لهم حيث كانت تعطى الدروس ، وبالرغم من حبها للوحدة لم تستطع أن تمتنع عن حضور سهرة أو اثنتين من سهراتهم ، كان الفريد ناتان أستاذًا معروفا فى باريس وعالما جليلا، ورجلا من رجال المجتمع فى الوقت نفسه ، مما جعل منه مزيجا غريبا من العلم والمرح ، وهو شىء مألوف فى هذا المجتمع . أما زوجته فكانت تجمع بنسب متساوية بين عملها الخيرى الصادق وإفراطها فى الاندماج فى المجتمع . كان الاثنان سخيين نحو أنطوانيت فيما يظهران لها من مودة صادقة ، ولكن فى غير استقرار ، فهو مجتمع لديه الفضول الدائم الذى يجعلهم يبحثون عن النفوس والأفكار النفسية ، ولايعنى ذلك أنهم يفعلون شيئا لمساعدةالآخرين ؛ إذ أن مصالح كثيرة تشغلهم فى وقت واحد، ولأن حب التظاهر متسلط عليهم أكثر من غيرهم بالرغم من ادعائهم التحرر من حب التظاهر ، وهم على الأقل يفعلون شيئا ما ، وهذا الأمر لابأس به بالنسبة لجمود المجتمع المعاصر . فهم عنصر هام فى نطاق العمل . ولم يكترث أحد من الكاثوليك بأمر أنطوانيت ، فلم تجد عندهم إلا البرود الذى يشبه حائطا ثلجيا من عدم الاكترات ؛ ولهذا شعرت أنطوانيت بقيمة اهتمام أسرة آل ناتان بها ، وإن كان اهتماما سطحيا . أدركت السيدة ناتان حياة التضحية التى تعيشها أنطوانيت ، وشعرت بما لهذه الفتاة من جاذبية فى مظهرها وطبيعتها ؛ ولهذا حاولت أن تفرض عليها حمايتها ، لم يكن عندها أولاد ، وكانت تحب الشباب ، وكثيرا ماكانت تجمع عندها شبانا وشابات،

وقد ألحت على أنطوانيت لتقوم بزيارتها هى أيضا ؛كى تخرج من عزلتها وتلهو قليلا ، ولما كان من السهل عليها إدراك سبب شعور أنطوانيت بالوحشة وأنه إنما يرجع جزئيا إلى ضيقها المالى ، أرادت أن تقدم إليها بعض الملابس الجميلة . إلا أن كبرياء أنطوانييت أبى عليها ذلك فرفضت ، ولكن هذه السيدة الفاضلة المحبة اتخذت مسلكا آخر أدى إلى إجبار أنطوانيت على قبول بعض تلك الهدايا الصغيرة غالية الثمن . إزاء ذلك كانت أنطوانيت تشعر بعرفان الجميل والخجل ، فتحاول جاهدة أن تحضر سهرات السيدة ناتان ولو من حين إلى آخر ، وبحكم شبابها كانت تجد فى ذلك بعض اللذة .

فى هذا المجتمع الذى يخلط بين الناس ، حيث يتقابل شبان كثيرون ، أصبحت الفتاة الصغيرة البائسة الجميلة التى ترعاها السيدة ناتان هدفا لاثنين أو ثلاثة من الشبان الطائشين ، حاولوا أن يوقعوها فى شباكهم وطمعوا فيها معتمدين على خجلها حتى وصل بهم الأمر إلى التراهن .

وبدأت ترد إلى أنطوانيت خطابات مجهولة أو موقعة بأسماء مستعارة رنانة تصارحها بالحب ، كانت فى البداية خطابات غرامية فيها التملق والإلحاح ، فيضرب فيها مرسلها موعدا للقاء ، وسرعان ماأصبحت تلك الخطابات أكثر جرأة . أخذت تستخدم التهديد ثم السب ثم النميمة ، خطابات تجردها من ثيابها ، وتسرد أسرار جسدها بالتفصيل وتلوثه بشهواتها الدنيئة . تسعى إلى استغلال سذاجة أنطوانيت مهددة إياها بفضيحة علنية إن لم تحضر فى الموعد المحدد ، كانت تبكى ألما كلما شعرت أنها جلبت لنفسها عروضا حقيرة كهذه ، كانت تلك الإهانات تحرق كبرياءها جسدا وروحا ، ولكنها لاتدرى كيف تخرج من هذا المأزق . لم تشأ أن تفاتح أخاها فى هذا الموضوع ، فكانت تعلم أنه سيتألم كثيرا وأنه سيجعل المسألة تتخذ شكلا

أكثر خطورة ، لم يكن له أصدقاء ، فهل تلجأ إلى البوليس ؟ كانت ترفض ذلك خوفا من الفضيحة ، ومع ذلك كان لابد من إيجاد حل لهذا الموقف ، وقد شعرت أن سكوتها لا يكفى لحمايتها ، وأن الشقى الذى يطاردها سوف يكون عنيدا فى موقفه ، وأنه سوف يصل إلى اقصى حد من الاستهتار ، ولن يتراجع إلا إذا وجد إنه سيقع فى خطر . بعث إليها برسالة كإنذار نهائى يأمرها بالذهاب إلى متحف لوكسمبرج فى الغد فذهبت . كانت قد اقتنعت بعد أن أرهقت ذهنها فى التفكير أن هذا الشخص الذى يضطهدها لابد أن يكون قد قابلها عند السيدة ناتان ؛ إذ أنه أشار فى إحدى رسائله إلى أمر من المرجح أن يكون قد حدث هناك .

توسلت إلى السيدة ناتان طالبة منها أن تؤدى لها خدمة كبيرة ، وهى أن ترافقها بعربة حتى باب المتحف وتنتظرها لحظة هناك . فذهبتا ودخلت أنطوانيت المتحف ، وعندما وصلت أمام اللوحة المتفق عليها اقترب منها الفتى الذى كان يهددها برسائله تعلوه علامات الانتصار ، وبدأ يحدثها فى ذوق مصطنع ، فحدقت فيه النظر دون أن تنطق بكلمة ، وعندما انتهى من حديثه سألها مازحا : لماذا تفحصه هكذا فأجابت :

- إنى أنظر إلى جبان .

ولم يضطرب لمجرد هذا التوبيخ ، وبدأ يكلمها بدون كلمة ، فقالت له :

- أردت أن تهددنى بفضيحة فجئت لأقدمها إليك ، أترغب فى ذلك ؟

كانت ترتعد وهى تتكلم بصوت مرتفع ، وكان ممكنا أن يلفت إليها الأنظار ، وكان الناس ينظرون إليها فعلا ، وشعر الشاب أنها لم تتراجع أمام أى شيء فخفض من صوته ، فرمته مرة أخيرة بقولها :

- أنت جبان . .

وأدارت له ظهرها ، فتبعها كى لا يظهر فى صورة المنهزم ، خرجت أنطوانيت من المتحف والرجل يسير على أعقابها ، واتجهت نحو العربة التى كانت تنتظرها ، وفتحت الباب على حين غرة فوجد الشخص نفسه وجها لوجه أمام السيدة ناتان التى عرفته وحيته باسمه . فاضطرب واختفى عن الأنظار .

واضطرت أنطوانيت أن تروى لرفيقتها قصة هذا الشخصى ، رغم أنها لم تفعل ذلك بدون أسف وتحفظ شديد ؛ إذ أنه كان من الصعب عليها أن تطلع سيدة غريبة على سر آلامها الناتجة عن حيائها الجريح ، فآخذتها السيدة ناتان لأنها لم تنبهها فى بادىء الأمر ، وتوسلت إليها أنطوانيت ألا تروى هذه القصة لأحد ، وانتهى الحادث عند هذا الحد ، ولم تكن صديقة أنطوانيت بحاجة إلى غلق باب منزلها فى وجه هذا الشخص ؛ إذ أنه لم يعد بعد ذلك أبدا .

فى هذا الوقت تقريبا تألمت أنطوانيت ألما من نوع آخر . فقد ظهر رجل فى الأربعين من عمره ، يشغل منصب قنصل فى الشرق الأقصى عاد إلى فرنسا فى إجازة بضعة أشهر ، قابل أنطوانيت عند أسرة ناتان وأغرم بها ، وأعدت ناتان هذه المقابلة دون علم أنطوانيت ؛ إذ قررت فى نفسها أن تتوسط فى زواج صديقتها الصغيرة ، كان يهوديا ، ولم يكن جميلا ، بل كان أصلع قليلا ومنحنى الظهر ، ولكن كانت له نظرة طيبة ، وكان مخلصا فى معاملاته مع الناس ، وله قلب يرثى لآلام الغير ؛ إذ كان هو نفسه قد قاسى الكثير. لم تعد أنطوانيت هذه الفتاة الصغيرة الخيالية ، هذه الطفلة المدللة التى تتخيل الحياة كأنها نزهة مع الشخص الحبيب فى ذات يوم جميل ، ولكنها كانت تنظر إلى الحياة الآن وكأنها معركة عنيفة يجب على المرء أن يستأنفها كل يوم دون كلل ، وإلا فقد فى لحظة واحدة كل الأرض التى اكتسبها حثيثا بعد سنوات

كلها تعب . وأخذت أنطوانيت تصور لنفسها كم يكون عذبا أن تتكىء على ذراع صديق يشاركها في متاعبها، وتستطيع أن تغمض عينيها قليلا و هو ساهر عليها . كانت علي يقين من أن هذا كان حلما ،ولكنها لم تجد بعد الشجاعة الكافية لتودع ذلك الحلم نهائيا ،والحقيقة أن أنطوانيت لم تكن تجهل أن الفتاة التى لاتملك مهرا ليس من حقها أن تأمل شيئا فى المحيط الذى تعيش فيه ؛ فالطبقة البورجوازية الفرنسية العتيقة معروفة فى العالم كله بالعقلية المادية الدنيئة التى تواجه بها مسائل الزواج . هؤلاء البورجوازيون يفوقون اليهود أنفسهم فى شغفهم الدنىء بالمال . فكثيرا مايختار شاب يهودى ثرى فتاة فقيرة شريكة لحياته . أو أن فتاة غنية تبحث بلهفة عن رجل مفرط فى ذكائه ، أما عن البورجوازيين الكاثوليك الريفيين فإن كيس النقود يبحث عن كيس النقود . مع أن احتياجات هؤلاء البؤساء تافهة، فهم لايعرفون سوى الأكل والتثاؤب والنوم والادخار .كانت أنطوانيت تعرفهم جيدا؛ فقد رأتهم منذ طفولتها بمنظار الثراء كما رأتهم بمنظار الفقر ، ولم تعد تتوهم ان فى استطاعتها الاعتماد عليهم ؛ لذلك شعرت بسرور عميق غير منتظر عندما تقدم لها هذا الرجل طالبا يدها ، ومع أنه لم تشعر نحوه بالحب فى بادىء الأمر فإنها أخذت تشعرإزاءه بحنان عميق وبعرفان للجميل .

ومع ذلك رفضت طلبه ، وما كان لها أن ترفض لولا أنه كان لزاما عليها أن تتبعه إلى المستعمرات وأن تترك أخاها . وأدرك هذا الصديق سمو الأسباب التى دفعتها إلى الرفض ، إلا أنه لم يغفر لها ، فالحب أنانى يطلب من الحبيب أن يضحى من أجله بكل شىء حتى أجمل الصفات التى يتحلى بها، ولايقبل منه دون ذلك . . وامتنع الرجل عن رؤيتها ولم يراسلها بعد سفره، وانقطعت أخباره عنها حتى أرسل إليها يوما – بعد خمسة أو ستة شهور ـ دعوة مكتوبة بخط يده تنبئها بزواجه من امرأة اخرى !

اكتأبت أنطوانيت كثيرا لهذا النبأ ، وامتلأ قلبها بالحسرة مرة أخرى ونذرت آلامها لله ، أرادت أن تقنع نفسها بأنها تستحق العقاب الذى نزل بها ؛ لأنها نسيت ولو للحظة مهمتها الوحيدة ، التضحية من أجل أخيها . ولم تعد تفكر فى غير تلك المهمة

اعتزلت أنطوانيت العالم وانقطعت عن زيارة آل ناتان الذين أظهروا نحوها فتورا منذ رفضت العريس الذى قدموه لها ، هم أيضا لم يقتنعوا بأسباب رفضها . جرح كبرياء السيدة ناتان ألا يتم هذا الزواج بسبب أنطوانيت . وكانت قد قررت بداية أنه سيتم وأنه سيكون موفقا تماما تماما . لم تكن تشك فى أن لدى أنطوانيت أسبابا وجيهة للرفض ، وإن كانت أسبابا عاطفية مبالغا فيها ، وبين عشية وضحاها تخلت عن هذه الفتاة المليئة بالكبرياء فى نظرها وانشغلت عنها ؛ إذ أن رغبتها الملحة فى تقديم المساعدة للناس سواء أرادوا ذلك أم لا وفقتها لاختيار فتاة أخرى بسطت عليها حمايتها ، فاستنفدت كل ماكان فى استطاعة السيدة ناتان أن تقدمه من إخلاص واهتمام لإنسان ما .

الفصل الثالث



3

كان أوليفييه يجهل تماما الأحداث المؤلمة التى اتخذت قلب أنطوانيت مسرحا لها . فقد كان حبيباً طائشا يعيش فى الأحلام، ومن العبث الاعتماد عليه فى شىء، رغم تفكيره وعقله الملىء بالحيوية وقلبه الذي يتدفق منه الحنان مثلما يتدفق من قلب انطوانيت، أما مجهوداته التى تستمر شهورا متتالية فقد كانت معرضة للضياع تيجة لأعمال تافهة أو نتيجة لتكاسلٍ أو يأس أو حب خيالى يستنفد كل وقته وقواه . كان يعشق من يصادف من فتيات جميلات أو يغرم بفتيات صغيرات مدللات لم يتحدث معهن أكثر من مرة فى مجتمع ما ،رغم أنهن لايُـعِرْنَهَ أى اهتمام ، وكثيرا ماعشق كتابا أو قصيدة أو لحنا فأغرق نفسه فيه شهورا طويلة على حساب دراسته . وكان على أنطوانيت أن تراقبه دون ملل وفى حذر شديد حتى لاينتبه إلى ذلك وحتى لاتجرح شعوره ، وكانت تخشى دائما أن يتهور فى تصرفاته ، فقد كان محموما دائما متلهفا لكل شىء ، غير متزن ، يسارع إلى الأمور بقلق بالغ كما يفعل الذين يترقبهم مرض السل . ولم يخف الطبيب عن أنطوانيت مدى ما فى ذلك من خطورة ، فأوليفييه كان بطبيعته كالنبات الهزيل الذى نقل من موطنه الأصلى إلى باريس . فى حين أنه فى حاجة إلى الضوء والهواء النقى . ولكن أنطوانيت لم تستطع أن توفر له ذلك ، فلم يكن لديها من المال مايسمح لها بالابتعاد عن باريس أثناء العطلة الصيفية . وفى باقى أيام السنة كانا ينهمكان فى أعمالهما طوال الأسبوع ،

ويبلغ منهما التعب أشده أيام الآحاد فلا يجدان ميلا إلى الخروج من المنزل إلا إذا كانت هناك حفلات موسيقية .

ومع ذلك ففى بعض آحاد الصيف كانت أنطوانيت تغالب نفسها وتصطحب أخاها إلى الغابات المجاورة لباريس من ناحية شافيل أو سان كلو، ولكن تلك الغابات تكون عادة مليئة برجال يصطحبون النساء وسط الضجيج والغناء الشعبى والأورا الملوثة الملقاة على الأرض . فلا يجدان وسط كل هذا ما ينشدان من قدسية الوحدة التى تريح النفس وتنقيها ، ويعودان فى المساء فى فوضى القطارات المزدحمة حيث يتكدس الناس فى جو خانق داخل عربات الضواحى المخجلة الواطئة . كانت هناك ضوضاء وضحك وغناء وإباحية ورائحة كريهة تمتزج بدخان التبغ . ويعود أوليفييه وأنطوانييت من هذه الرحلة متأففين وقد فقدوا روحيهما المعنوية النافرتين من تلك المظاهر الشعبية . ويتسل اوليفييه إلى أخته ألا تعود إلى تلك النزهات ، ولا تجد أنطوانيت فى نفسها الرغبة فى تكرارها قبل أن يمضى وقت طويل . ومع ذلك ـ ورغم كراهيتها لهذه النزهات التى تفوق كراهيه أوليفييه لها ـ كانت تعتقد أنها ضرورية لصحة أخيها فترغمه أن يعود إليها ، ولكن التجارب الجديدة لم تكن أسعد من الأولى ويؤنبها أوليفييه على ذلك فى شدة، ويظلان محبوسين فى المدينة الخانقة ومن ساحة سجنهما كانا يتوقان إلى الحقول .

وصل أوليفييه فى دراسته إلى المرحلة النهائية ، وكان عليه أن يؤدى فى نهاية ذلك امتحان مدرسة المعلمين العليا ، حان الوقت فعلا للانتهاء من هذه الدراسة شعرت أنطوانيت بوطأة التعب . كانت تعتقد أن شقيقها سينجح؛ إذ أن الظروف جميعا تهيئه للنجاح ، فكان من الطلبة الممتازين فى الليسيه بإجماع المدرسين على تقدير أعماله وذكائه لولا أن التفكير المنظم كان

ينقصه ، مما جعل من الصعب عليه إخضاع فكره لأية خطة ثابتة ، ولكن شعور أوليفييه بالمسئولية الملقاه على عاتقه كان يرهقه إلى درجة أخذت تفقده القدرة على العمل كلما اقترب موعد الامتحان ، بل إن التعب المضنى والخوف من الرسوب وخجله الذى أصبح كالمرض بالنسبة إليه ، فيشل تفكيره قبل الامتحان . كان يرتعد لمجرد التفكير فى أنه سيقف بين يدى ممتحنيه ،وكم سبب له خجله من عذاب ، كان وجهه يحمر خجلا ويكاد يختنق عندما يأتى دوره ليتكلم ، وكان لايجيب إلا بصعوبة فى بادىء الأمر ، إذا نودى اسمه ، وكان السهل عليه أن يجيب عن سؤال فجائى أكثر مما لو كان يعرف أن ثمة سؤالا سيلقى عليه ، وهنا يصبح كالمريض ولاينقطع ذهنه عن التفكير مهيئا له كل ماسيحدث بالتفصيل، وكلما طال انتظاره ازداد به التفكير . وليس هناك امتحان إلا وأداه على الأقل فى الأحلام فى الليالى السابقة للامتحان حيث يستنفد كل نشاطه ، وهكذا لايتبقى لايتبقى من نشاطه شىء للامتحان الفعلى .

على أنه لم يستطع مجرد الوصول إلى تأدية الامتحان الشفهى المخيف الذى كان العرق يتصبب منه اثناء الليل لمجرد التفكير فيه ، ففى امتحان الفلسفة التحريرى عجز أوليفييه عن أن يكتب ولو صفحتين فى ست ساعات مع أن تلك المادة كانت جديرة باستهوائه فى ظروف عادية أخرى . كان ذهنه خاويا طوال الساعات الأولى من الامتحان ، لم يفكر فى شىء أى شىء على الإطلاق وخيل إليه أن أمامه حائطا أسود يصطدم به كلما حاول التفكير . وتشقق هذا الحائط قبل انتهاء الوقت المحدد للامتحان بساعة واحدة وتدفقت من هذا الحائط إشعاعات من النور . وتمكن أوليفييه من كتابة بعض السطور الممتازة، ولكنها لا تكفى لنجاحه . ورأت أنطوانييت علامات الانهيار على وحه أخيها، فأدركت أنه راسب لا محالة ، وشعرت

باليأس مثله ، ولكنها لم تظهر له شيئا ، فقد كان لديها قدرة على الاحتفاظ بالأمل فى أشد الظروف يأسا .

ورسب أوليفييه فى المسابقة !

أما أنطوانييت فكانت تتظاهر بالابتسام كما لوكان الأمر غير ذى أهمية ، ولكن شفتيها كانتا ترتعدان ، وأخذت تواسى شقيقها قائلة له : إنه من السهل عليه تعويض مانتج عن سوء الحظ ، وإنه سينجح دون شك فى العام التالى وبترتيب أفضل . ولم تقل له : كم كان يهمها أن ينجح فى ذلك العام ، ولاكيف تشعر بجسدها وروحها يضمحلان لخشيتها ألاتتمكن من احتمال عام آخر كالذى انقضى ،ولكن الضرورة كانت تحتم عليها أن تحتمل ، فلو أنها اختفت قبل أن ينجح أوليفييه لما وجد الشجاعة الكافية للاستمرار فى كفاحه وحده ، سوف تفترسه الحياة .

لذلك أخفت أنطوانييت عن أخيها أعباءها ، وضاعفت جهودها وتفانت ؛ لتوفر له بعض التسليات أثناء العطلة الصيفية ، حتى يعاود العمل بقوة جديدة فى بدء العام الدراسى ، ولما حان الوقت وجدت أنطوانييت أن القليل من المال الذي ادخرته قد نفد ، علاوة على أنها فقدت أكثر الدروس التى كانت تعود عليها بفائدة كبيرة .

ومضى عام آخر وتوترت أعصاب أنطوانيت وشقيقها أمام الامتحان النهائى وكادت تتحطم . كان عليهما قبل كل شىء أن يعيشا أن يبحثا عن سبل أخرى للعيش . فقبلت أنطوانيت وظيفة مدرسة لأسرة فى ألمانيا حصلت عليها بفضل أصدقائها من آل ناتان كان ذلك اخر حل تود أن تلجأ إليه ؛إذ لم يكن ثمة حل اخر فى ذلك الحين ،ولم تعد تستطيع الانتظار، فمنذ ست سنوات وهى لم تفارق شقيقها يوما واحدا . وأصبحت لاتتصور كيف تعيش الآن دون أن تراه أو تستمع إليه . وكلما فكر أوليفييه فى

ذلك الأمر شعر بالفزع ، ولكنه لم يجرؤ على الكلام . إنه هو السبب فى هذا الشقاء ، فلو أنه نجح لما اضطرت أنطوانيت أن تلجأ إلى مثل تلك الحلول . ولم يعد من حقه أن يعترض على هذا الحل الذى ارتأته أخته . كان على أنطوانيت أن تقرر الأمورر وحدها . قضى الشقيقان الأيام التى تسبق سفر انطوانيت فى ألم صامت كما لو كان أحدهما على وشك الموت ، وكلما اشتدت وطأة الألم على واحد منهما كان ينعزل عن الآخر ويختبىء ، فهى تنظر إلى شقيقها تستقى النصيحة من نظراته . لو أنه قال

– لا ترحلى . . .

لعدلت عن سفرها رغم شدة ضرورته . وحتى اللحظات الأخيرة وهما فى العربة التى أقلتهما إلى محطة الشرق كانت أنطوانيت على استعداد لأن تعدل عن قرارها ، الا أنها لم تجد فى نفسها القوة الكافية للتنفيذ ، انتظرت كلمة من شقيقها ، كلمة واحدة ، ولكنه لم يتفوه بها . كان هو الآخر يتجلد مثلها .

وطلبت منه أن يعدها بالكتابة إليها يوميا ، وألا يخفى عنها شيئا ، وأن يدعوها إليه فورا إذا ماطرأ أدنى شىء .

رحلت أنطوانييت . وعاد أوليفييه حزينا إلى عنبر النوم فى الليسيه ، حيث قبل الالتحاق بالقسم الداخلى ، فيما كان القطار يحمل أنطوانييت التى بدا عليها الألم وأخذت ترتعش من البرد . لم يغمض لاكليهما جفن طوال الليل ، اذ كان كل منهما يشعر بأن كل دقيقة تمر به تبعده عن الآخر ، وأخذ يتناجيان بصوت خافت .

كانت أنطوانيت تشعر بخوف من الحياة الجديدة التى تقبل عليها . لقد تغيرت كثيرا فى السنوات الست الماضية ، كانت فيما مضى من الشجاعة بحيث لا يرهبها شىء ، ثم تعودت السكون والوحدة لدرجة جعلتها تتألم

كلما اضطرت إلى أن تحيد عن ذلك . أنطوانيت الضاحكة ، الثرثارة ، المرحة أثناء الأيام السعيدة التى انقضت وانقضت معها حياتها ، لقد جعل منها البؤس فتاة برية ، ولاشك أن عدوى الخجل قد انتقلت اليها آخر الأمر من أولبفييه . كان من الصعب عليها التحدث مع أى شخص خلاف أخيها . أصبحت تهاب كل شىء وتخاف حتى من الزيارات العادية ؛ ولذا كانت تشعر بغم شديد لمجرد التفكير فى أنها ستعيش مع أناس غرباء وتتحدث إليهم - وتكون موضع نظراتهم على الدوام . هذه الفتاة المسكينة لم يكن لديها، كما لم يكن لدى أخيها - أى استعداد للتدريس . فكانت تؤدى واجبها بأمانة رغم أنها لم تكن تؤمن به . ثم إن شعورها بها لعملها من عدم الفائدة لم يساعدها على أداء ذلك العمل . لقد خلقت لتهب الحب للناس، ولم تخلق للتدريس ، ولكن أحدا لم يكترث لعاطفتها .

كان منزل الاسرة التى عملت لديها فى ألمانيا آخر مكان يصلح لإظهار تلك العاطفة ؛ إذ أن أسرة جرونيوم التى كلفتها بدريس اللغة الفرنيسة للأطفال لم تعرها أى اهتمام . فأفراد تلك الأسرة كانوا مزيجا من الكبرياء والأنفة ، لايبالون بشىء وإن كانوا فضوليين ، كانوا يدفعون أجورا لا بأس بها ، إلا أنهم كانوا ينظرون إلى من يقبض ماهم كأن مدين لهم بالجميل ، ويعتقدون بعد ذلك أن من حقهم ان يتصرفوا معه كما يشاءون ؛ لذلك عاملوا أنطوانيت كما لو كانت خادمة ذات مستوى يعلو قليلا عن باقى الخدم . ولم يتركوا لها أى حرية تقريبا ، حتى إنها لم يكن لها غرفة خاصة بها . كانت تنام فى غرفة صغيرة ملاصقة لغرفة الأطفال ، يظل بابها مفتوحا إثناء الليل . وهكذا لم تستطع ان تنفرد بنفسها من وقت لآخر ، هذا الحق المقدس فى ان ينفرد كل انسان بمشاعره الداخلية . كانت كل سعادتها ان تلتقى بأفكارها مع شقيقها ، وتتحدث اليه مستغلة اللحظات التى تتمتع فيها

بالحرية ، ولكن حتى تلك اللحظات كانوا ينازعونها اياها وماتكاد تكتب كلمة واحدة حتى تجد فى الغرفة من يحوم حولها ويسألها عما تكتب ، واذا ما قرأت خطابا سألوها عما فيه . وكانوا يستخبرون عن الشقيق الصغير بطريقة ودية وان لم تخل من سوء الظن والسخرية ، وكان على أنطوانيت ان تختبىء . وقد يخجل الانسان عندما يعلم الوسائل التى كات الفتاة يلجأ اليها أحيانا، وكيف كانت تحبس فى أماكن منعزلة لتقرأ دو ن أن يراها أحد خطابات أوليفييه، ولو حدث مرة ونسيت خطابا فى مكان ما بغرفتها فمما لاشك فيه أن ذلك الخطاب سيقرأ حتما . ولما لم يكن لديها من الأثاث المحكم ، الذى يمكن أن تحتفظ فيه سوى حقيبتها الكبيرة ، فقدكانت مضطرة لأن تحمل معها كل ماتملك من أوراق لاترغب فى أن يطلع عليها أحد . كانوا يفتشون دائما فى كما كانوا دائمى البحث عما يدور فى نفسها، وكانوا يبذلون جهدهم لكى يصلوا الى مافى أعماقها من أسرار ، ولم يكن ذلك اهتماما من آل جرونيوم بأمر أنطوانيت ، ولكن اعتقادا منهم أنها ملك لهم ماداموا يدفعون لها أجرا ، فهم لايفعلون ذلك عن سوء قصد ، وإنما لأن الفضول كان عادة أصيلة لديهم حتى إنهم لايشعرون لذلك بأى حرج فيما بينهم .

ولم يكن هناك شىء أصعب احتمالا على نفس أنطوانيت من هذا التجسس المستمر ، وهذا التجرد من الحياء الذى لم يكن يسمح لها بأن تهرب ولو ساعة كل يوم من أنظار الفضوليين ، ولم يلبث التحفظ والكبرياء اللذان تواجه بهما أنطوانيت آل جرونيوم أن تسببا لهم فى الألم . وكانوا يجدون فى المثل الأخلاقية العالية أسبابا يبررون بها فضولهم الفظ ، ويستنكرون بها رغبةأنطوانيت فى أن تتحاشى ذلك . كانوا يؤمنون أن من حقهم معرفة كل شىء عن الحياة الخاصة لتلك الفتاة التى تعيش عندهم كواحدة من أفراد

الأسرة والتى وكلوا إليها أمر تربية أطفالهم ، من أجل ذلك كله فهم مسئولون عنها . وكثيرات من ربات البيوت يدعين هذه المسئولية بالنسبة لخدمهن وإن كانت هذه المسئولية تقتصر على حرمان هؤلاء المساكين من أى بهجة فى الحياة فأنها لا تجنبهم الاعمال الشاقة اوالكريهة ، واستنتج آل جرونيوم أن أنطوانيت لابد أن تكون مذنبة لرفضها الاعتراف بواجبهم الادبى نحوها ؛ فالفتاة الشريفة ليس لديها ما تخفيه من أسرار .

وهكذا أحيطت أنطوانيت بجو من الاضطهاد اضطرها أن تكون دائما على أهبة الاستعداد للدفاع نفسها . وزادها ذلك جمودا فى مظهرها وانطواء على نفسها يتجاوز المألوف .

كان يصلها يوميا من أخيها خطابات لاتقل صفحاتها عن اثنتى عشرة ، وتمكنت من الرد على كل خطاب ولو ببضعة سطور . وحاول أوليفييه أن يبدو شجاعا وأن يخفى ما استطاع من ألمه ، ولكن الملل كاد يقتله ؛ إذ أن حياته كانت مرتبطة بحياة شقيقته لدرجة جعلته يشعر بأنه فقد نصف كيانه بعد أن افترق عنها . لم يعد يعرف كيف يستعمل فكره أو حتى ذراعيه وساقيه ، لم يعد يعرف كيف يتنزه او كيف يعزف على البيانو ، لم يعد يعرف كيف يعمل أو كيف لايعمل ، ولم يعد يرى فى أحلامه شيئا سوى أخته . فأخذ ينكب على كتبه من الصباح حتى المساء ، ولكن دون أية فائدة ؛ إذ أن فكره كان بعيدا . كان يتعذب فى نفسه عندما يفكر فى أخته وفى رسائل الأمس، ويظل يحدق فى ساعة الحائط منتظرا الرسالة التالية التى مايكاد يتسلمها حتى ترتعد أصابعه فرحا وخوفا أيضا وهى تمزق الغلاف . لم يحدث قط لحبيب تسلم من حبيب له رسالة فاضطرب حنانا وقلقا مثلما حدث لأوليفييه ، كان يتوارى كما كانت تفعل أخته ليقرأ رسائلها التى يحتفظ بها دائما معه . وكان إذا جاء الليل يضع آخر رسالة تصله منها تحت وسادته

ويظل يتفقدها من وقت لآخر؛ ليطمئن عليها فى ساعات الأرق الطويلة التى يداعب خياله فيها ظل أخته العزيزة . كم كان يشعر بوطأة البعد عنه ، وكانت نفسه تنقبض بوجه خاص إذا ما تأخر البريد فى حمل رسالة أنطوانييت إليه فلا تصله إلا بعد مضى يومين من إرسالها . ماأطول اليومين والليلتين بينهما! كان يبالغ فى طول الوقت والمسافة التى تفصل أحدهما عن الآخر ، لا سيما وأنه لم يسافر من قبل . كان خياله دائب العمل فهو يقول لنفسه : ياالهى ، ماالعمل إذا مرضت ؟ إنه لم يحتمل أن تموت قبل أن يمكنه رؤيتها ، لماذا لم تكتب اليه إلا بضعة أسطرفى اليوم السابق ؟ هل كانت مريضة ؟ وعندئذ يكاد يتختنق اوليفييه وكان التفكير يذهب به أكثر من ذلك إلى الفزع خوفا من آن يموت بعيدا عن شقيقته وهو وحيد وسط زملائه الذين لا يكترثون بأمره ، وفى هذه الليسيه التى تشمئز منها النفس ، وفى باريس الكئيبة ، كان يفكر كثيرا فى هذا الاحتمال حتى يمرض فعلا فيتساءل : هل يكتب إليها لكى تعود ؟ ولكن سرعان ما كان يخجله هذا الجبن . فما إن يشرع فى الكتابة حتى يشعر بسعادة فى التحدث إليها تجعله ينسى لمدة قصيرة آلامه ، وكان يخيل إليه أنه يراها ويستمع اليها ، فيروى لها كل شيء فى خطاباته . لم يحدث أبدا عندما كانا معا أن حدثها بمثل هذه المودة الصادقة وبمثل هذه العاطفة التى تجعله يناديها : شقيقتى المخلصة الشجاعة ، شقيقتى الصغيرة الحبيبة الطيبة التى أحبها حبا جما . كانت رسائل غرامية حقا .

كانت خطابات أوليفييه هذه تغمر أنطوانيت بحنانها المتدفق ، فكانت النسيم تستنشقه الفتاة طوال يومها ، وإذا ماتأخرت فى الصباح عن الميعاد المنتظر ظهر عليها البؤس . وحدث أن آل جرنيوم تأخروا مرتين أو ثلاثا حتى المساء فى تسليمها خطابات أخيها ، وكان ذلك عن عدم اكتراث أو ربما عن

سوء قصد ، وفى مرة أخرى أخر الخطاب حتى اليوم التالى فانتابت أنطوانيت الحمى . وفى يوم رأس السنة خطرت لهما ، هما الاثنين ، فكرة واحدة دون أن يتفقا عليها ، ففاجأ كل منهما الآخر ببرقية مطولة كلفتهما الكثير ، ووصلت إليهما فى ساعة واحدة . كان أوليفييه مستمرا فى استشارته لأنطوانييت فيما يختص بأشغاله ،وما يعتريه من قلق، فتسدى إليه أنطوانيت النصح وتسانده وتبث فيه قوتها .

ولكن أنطوانيت كانت هى نفسها فى حاجة إلى القوة ؛ إذ كادت تختنق فى هذا البلد الغريب حيث لاتعرف أحدا ولايهتم بأمرها أحد ، إلا زوجة لأحد المدرسين جاءت أخيرا للإقامة بتلك المدينة ، وكانت هى أيضا تشعر بالغربة ، وأحست هذه السيدة الكريمة بشىء من حنان الأم ، وتأثرت لألم هذين الشقيقين الصغيرين اللذين افترقا رغم حبهما الشديد . وقد نجحت فى أن تنتزع من أنطوانيت جزءا من قصتها ، ولكن هذه السيدة كانت تحب الضجيج وتتصرف بطريقة عامية ، تنقصها اللباقة والرزانة ، إلى حد جعل أنطوانيت ذات الإحساس المرهف تنطوى على نفسها ؛ لذلك لم تتمكن الفتاة من أن تبوح بما فى قلبها لأحد ، وأخذت تكتم همومها، فتشعر بين الحين والحين بأنها قد أوشكت على السقوط تحت هذا العبء الثقيل ، ولكنها كانت تعض على شفتيها وتستأنف السير . وساء ت صحتها فانتابها هزال شديد . كانت خطابات أوليفييه تزداد يأسا . وفى أزمة من الضيق كتب إليها قائلا :

- عودى ، عودى ، عودى !

وما كاد يرسل هذا الخطاب حتى شعر بالخجل من نفسه ، فكتب خطابا آخر يرجو فيه من أخته أن تمزق الخطاب الأول ولا تفكر فيه ، وادعى المرح ،

وأنه لم بعد فى حاجة إلى شقيقته . كان يجرح كبرياءه أن يعتقد أحد أنه لايستطيع الاستغناء عن أخته .

ولكن أنطوانييت كانت تدرك أمر أوليفييه تماما ، فكانت تقرأ مابدور فى ذهنه دون أن تدرى ماتفعل . وفى أحد الأيام أوشكت على العودة ، فذهبت إلى المحطة لتستفسر عن موعد قيام قطار باريس بالضبط ، ولكن سرعان ما قالت لنفسها : إن هذا ضرب من الجنون ، فإن النقود التى تحصل عليها تسمح لها بدفع مصاريف أوليفييه المدرسية وإنه طالما استطاعا الاحتمال وجب عليها الثبات ، ولم يعد لأنطوانييت مايلزمها من حزم لاتخاذ أى قرار ، كانت تعود إليها فى الصباح شجاعتها الفائقة ، ولكن حين يقترب منها ظل المساء كانت تخور قواها فتفكر فى الهرب ، كانت تشعر بالحنين إلى وطنها ، هذا الوطن الذى طالما كان قاسيا ، ولكن مع ذلك ينطوى على كل ما كانت تقدسه فى ماضيها ، كانت تتوق إلى اللغه التى يتحدث بها شقيقها ، والتى كانت تعبر بها عن حبها له .

وحدث أن مرت بالبلدة الألمانية الصغيرة فرقة من الممثلين الفرنسيين ، ومع أن أنطوانييت لم تذهب إلى المسرح إلا نادرا ؛ إذ لم يكن لديها الوقت ولا الميل لذلك ، فقد شعرت بحاجة ملحة للذهاب إلى المسرح لتستمع إلى من يتكلمون بلغتها ، ولتلجأ فترة قصيرة إلى فرنسا . فوجدت الأماكن قد نفدت ، فقابلت الموسيقار الشاب جان كريستوف الذى أشاع الثرثرة فى المدينة الصغيرة ، وسرعان ما وصلت الشائعات إلى أسماع آل جرونيوم المستعدين لتصديق كل ما يشاع عن تلك الفتاة الفرنسية . وكانوا من جهة أخرى شديدى السخط على كريستوف ، فاستغنوا عن خدمات أنطوانيت فى جفاء .

أما هذه الفتاة البريئة ، ذات النفس المرهفة الخجول ، التى ملك عليها

حبها لأخيها كل حواسها والتى لم يلحق بها أى دنس فكرى ـ فكادت تموت خجلا عندما أدركت معنى الاتهامات الموجهة إليها، ولم تتحامل لحظة واحدة على كريستوف ، فهى تعلم أنه برىء مثلها ، فإذا كان قد تسبب لها فى أذى فلقد أراد لها خيرا فكانت تحفظ له الجميل ، لم تكن تعرف عنه أى شىء سوى أنه موسيقار، وأنه موضع انتقادات شديدة ، ورغم جهلها بما تنطوى عليه حياة الرجل فلقد كان لديها شعور فطرى ، أرهقه البؤس ينبئها بما فى النفوس ،وقد لاحظت أن هذا الشخص الذى جاورها فى المسرح قد ينقصه شىء من التربية ، وقد يكون شاذا إلى حد ما ، ولكنه كان على سذاجة تماثل سذاجتها ، فيه رجولة مصحوبة بحنان . كانت أنطوانيت تشعر بالارتياح كلما تذكرت هذه الصفات . وكل ما سمعته من سوء عن كريستوف لم يؤثر فى نقتها به ، فقد شعرت أنها أمام ضحية أخرى ، يتألم مثلها منذ زمن بعيد؛ نتيجة لشرور من يفترون عليه . ولما كانت قد اعتادت أن تغفل عن أمورها فى سبيل التفكير فى الغير فقد شغلتها إلى حد ما فكرة آلام كريستوف عن آلامها هى . وما كان لأنطوانيت أن تسعى بأى حال لأن تلتقى به مرة أخرى أو أن تكتب إليه ، تمنعها من ذلك طبيعتها التى تجمع بين الحياء والكبرياء ،وقدرت أن كريستوف يجهل الأذى الذى سببه لها، وتمنت بطيبة قلبها أن يجهل ذلك .

رحلت أنطوانيت ، وشاء القدر أن يتقابل القطار الذى أقلها بعد ساعة من تركه المدينة مع قطار كريستوف العائد من مدينة مجاورة كان قد قضى بها يومه . وتقابلت نظراتهما فى سكون الليل ،عندما توقفت عربتاهما بضع دقائق جنبا إلى جنب . لكنهما لم يتكلما ، وماكان فى وسعهما أن يتبادلا غير الكلام العادى . هذا الكلام العادى الذى يحتمل أن يغض من قداسة شعورهما الغامض بالشفقة المتبادلة والاستلطاف الخفى . هذا الشعور

المجهول الذى نشأ بينهما والذى لم يكن يرتكز إلا على إحساس داخلى قوى . فى هذه اللحظة الأخيرة وعندما كانا لا يعرف أحدهما الآخر ، تبادلا النظرات ، ورأى كل منهما فى الآخر صورة تختلف تماما عن تلك التى يراها فيهما كل من يعيشون معهما . إن كل شىء يمر : ذكرى الكلام والقبلات وتعانق الأجساد الحبيبة ، ولكن ذكرى الأرواح التى التقت وتعارفت وسط حشد من الأشياء الزائلة لا تمحى أبدا . هذه الذكرى كانت أنطوانيت قد حملتها معها ضمن أسرار قلبها الذى غمرته الأحزان ، تلك الأحزان التى بدأ يظهر من خلالها ضوء خفى مثل النور الذى تسبح فيه جنة أورفيه التى تتحدث عنها الأساطير .

التقت أنطوانيت بأوليفييه . كان الوقت قد حان لأن تعود ؛ إذ أن أوليفييه كان مريضا . هذا الفتى العصبى المضطرب الذى كان يرتجف لمجرد فكرة المرض ويرفض ـ وهو فى أشد حالات الألم ـ أن يكتب لأخته خشية أن يقلقها ، ولكنه كان يناديها فى سره ويتوسل إليها أن تعود كما لو كانت معجزة من السماء .

وتحققت المعجزة ! كان طريح الفراش فى مستشفى الليسيه محموما ، غارقا فى أحلامه ، ولم يصرخ حين رأى أنطوانيت ، فكم رآها فى الأوهام وهى تعود إليه ، ولكنه رفع قامته من على الفراش وفغر فاه وهو يرتعد خوفا من أن يكون ذلك وهما جديدا ، ولما جلست أنطوانيت إلى جانبه على السرير واحتوته بين ذراعيها والتصق هو بصدرها وشعر بنعومة خدها تحت شفتيه وبيديها اللتين أثلجتهما ليلة السفر ، عندما تيقن أنها أخته حبيبته ، أخذ يبكى . وما كان فى استطاعته أن يفعل غير ذلك . إنه مازال كما كان وهو طفل كالطير الصغير . وأخذ يضمها إليه خشية أن تفر منه مرة أخرى . كم تغير كلاهما ! ويالمظهرهما الحزين ! ومع ذلك فماذا بهما ماداما قد التقيا ؟ !

عاد كل شيء مضيئا أمام عينيها ، المستشفى والليسيه والنهار المعتم . أمسك كل منهما بالآخر ولن يفرق بينهما شيء بعد ذلك ، وقبل أن تتكلم أنطوانيت طلب منها أوليفييه أن تقسم له أنها لن تفارقه بعد ذلك . لم يكن فى حاجة إلى هذا الطلب . فهى لن ترحل أبدا ! لقد ذاقا مرارة الألم وكلٌّ منهما بعيد كل البعد عن الآخر، كانت أمها على حق عندما كانت تقول : إن أى شيء فى الدنيا أهون من الفراق ، حتى البؤس وحتى الموت يهونان بشرط أن يقسما معا .

وأسرعا واستأجرا مسكنا . كانا يودان العودة إلى مسكنهما القديم رغم رداءته لولا أنه شغل . أما المسكن الجديد فكان هو أيضا على فناء ، وكانت هناك شجرة طلح صغيرة، لم يلبثا أن تعلقا بها كما لو كانت صديقا ريفيا سجينا مثلهما وسط شوراع المدينة . وسرعان ما استعاد أوليفييه صحته أو ما تعودا على تسميته كذلك، فالصحة بالنسبة لأوليفييه كانت تبدو مرضا بالنسبة لشخص آخر أقوى منه ، إن رحلة أنطوانييت إلى ألمانيا كانت كئيبة ، إلا أنها عادت منها بشيء من المال وزاد دخلها من ترجمة كتاب ألمانى قبل أحد الناشرين أن يطبعه لها . وابتعدت الأزمات المالية عنهما مدة من الزمن . وكان ممكنا أن يسير كل شيء على مايرام إذا نجح أوليفييه فى نهاية العام . ولكن ماذا يحدث إن لم ينجح ؟

بدأ شبح الامتحان يقترب منهما بعد أن عادا يشعران بلذة العيش معًا ، كانا يتجنبان الكلام فى هذا الموضع ، ولكن عبثا حاولا ذلك ؛ فكانا دائما يعودان إليه، ففكرة الامتحان كانت تطاردهما فى كل مكان حتى إذا حاولا الترويح عن نفسيهما ، تقفز تلك الفكرة فجأة وسط لحن من ألحان حفلاتهما الموسيقية ، حتى فى الليل يستيقظان ليجداها أمامهما كالهوة العميقة . كان أوليفييه شديد الرغبة فى تخفيف آلام أخته وفى تعويضها عن شبابها الذى

ضحت به من أجله ، إلاأنه كان إلى جانب ذلك شديد الفزع من الخدمة العسكرية التى كان من المستحيل تجنبها إذا لم ينجح ، ففى ذلك الوقت كان القبول فى المدارس العليا يعفى من الخدمة العسكرية . وسواء كان على حق أم لم يكن ، فقد كان يشعر باشمئزاز خفى من هذا الاندماج الجسدى أو المعنوى ومن ذلك الانحلال الذهنى الذى يراه فى حياة الثكنات . كل ماكان لديه من أرستقراطية وطهر كان يدفعه إلى الثورة على هذا الالتزام، وربما فضل عليه الموت . وهذا الشعور يسخر منه المرء بل يزدريه باسم الأخلاق التى أصبحت دين العصر الحديث ، ولاينكر هذا الشعور إلا الأعمى ، فليس هناك شىء أعمق من هذا الشعور بالألم ، ألم الوحدة الخلقية الجريح من اعتداء المشاعر الجماعية الغليظة .

أعيد الامتحان مرة أخرى وكاد أوليفييه ألا يؤديه ؛ لأنه كان متعبا . وكان شديد الخوف من الاضطرابات النفسية التى كان عليه أن يجتازها فى الامتحان ، وكان يخشاها لدرجة جعلته يكاد يتمنى لو مرض تماما . إلا أنه اجتاز الامتحان التحريرى بشكل مرض هذه المرة ، وكم شق عليه انتظار النتيجة . كان من التقاليد العتيقة فى بلد الثورة الفرنسية الكبرى ـ وهى أكثر بلاد العالم تمسكا بالروتين ـ أن تعقد الامتحانات فى أشد أيام السنة حرارة ، فى شهر يوليو ، كما لو أنهم يتعمدون الإجهاز على هؤلاء المساكين بعد أن أثقلت كواهلهم تلك البرامج الطويلة التى قاموا بتحضيرها والتى لا يعرف واحد من ممتحنيهم عشر ما فيها ، وأعلنت نتيجة البحوث الأدبية فى اليوم التالى لعيد ١٤ يوليو ، ولتلك الضوضاء الشعبية وهذا المرح الذى يبدو ثقيلا على نفوس غير المرحين والذين هم فى حاجة إلى السكون . فأقيمت الألعاب الشعبية فى الميدان الذى يجاور منزلهما ، وكانت الطلقات النارية تتلاحق ، ويرتفع عويل الخيول الخشبية التى كانت تديرها الآلات البخارية، كما

كانت تسمع صيحات الصناديق الموسيقية من الظهر حتى منتصف الليل . واستمرت هذه الضوضاء ثمانية أيام بأكملها ، ثم سمح رئيس الجمهورية ، دعاية له ، بنصف أسبوع آخر لأصحاب هذه الألعاب الصاخبة ، وما كان ذلك يكلفه شيئا مادام لا يسمعهم ، إلا أن أوليفييه وأنطوانييت أنهكتهما الضوضاء وأخذت تدق على رأسيهما ، واضطرتهما إلى إغلاق النوافذ والاختناق داخل الحجرة ، فكانا يصمان آذانهما محاولين ـ دون جدوى ـ أن يهربا من شبح تلك الألحان السخيفة التى كان صريرها يظل مرتفعا من الصباح حتى المساء ، والتى كانت تخترق رأسيهما كأنها ضربات سكين ، كان الشقيقان يئنان من شدة الألم .

بدأت الامتحانات الشفوية بعد إعلان نتيجة الامتحان التحريرى بفترة وجيزة ، وتوسل أوليفييه إلى شقيقته ألا تحضر معه هذا الامتحان . فانتظرت بباب القاعة وكانت أكثر منه خوفا . ولم يحدث قبل ذلك أن قال لها : إنه مطمئن إلى طريقة أدائه الامتحان قبل هذه المرة ، بل كان يشغل بالها بذكر ما قاله وما لم يقله فى الامتحان . جاء يوم النتيجة النهائية ، وأعلنت أسماء الطلبة الناجحين فى فناء السوربون . فلم تشأ أنطوانييت أن تترك شقيقها يذهب إليها وحده . كان كل منهما أثناء مغادرة المنزل يفكر دون أن يصرح للآخر كيف أنهما عند عودتهما إلى المنزل سيكونان على علم بالنتيجة ، وربما شعرا بالأسف على هذه اللحظات التى قضياها خائفين بالرغم مما تبقى لهما من أمل . اقتربا من السوربون فشعرا بأرجلهما تخور ، وقالت أنطوانييت لأخيها حتى التى تعودت أن تكون شجاعة :

– لا تمش مسرعا هكذا ، أرجوك .

ونظر أوليفييه إلى شقيقته التى حاولت أن تبتسم ، وقال لها :

– الاتريدين الجلوس لحظة على هذا المقعد ؟

وتمنى أوليفييه ألا يكمل طريقة لولا أن شدت أنطوانيت على يده بعد لحظة وهى تقول :

– لست متعبة ياصغيرى ، لنواصل سيرنا .

ولم يهتديا إلى كشف الأسماء فى أول الأمر، فقرأا كشوفا كانت كلها خالية من اسم جنان ، وأخيرا وقع نظرهما على الاسم فلم يدركاه أولا بل أخذا يعيدان قراءته دون أن يصدقا مايريان . ولما تأكدا من صحة الأمر ومن أن جنان هو أوليفييه وأنه قدنجح فى الامتحان لم ينطقا بكلمة واحدة، وعادا مسرعين إلى المنزل . كانت أنطوانيت ممسكة بذارع شقيقها وبمعصمه ، أما هو فكان متكئًا عليها ، كانا يعدوان وهما سائران لايريان شيئا مما حولهما وعرضا نفسيهما للخطر وهما يعبران الطريق وكل منهما ينادى الآخر :

ياصغيرى، ياصغيرى .

وصعدا إلى المنزل، وكانا يثبان درجات السلم أربعا أربعا ، وما كادا يصلان إلى غرفتهما حتى تعانقا . ثم أمسكت أنطوانيت بيد شقيقها واقتادته حيث علقت صورة أبيها وأمها بجوار السرير فى أحد أركان الغرفة التى كانت عندها بمثابة المحراب ، وركعا معا أمام الصور واسترسلا فى بكاء صامت .

أعدت أنطوانيت طعاما شهيا للعشاء ، لكنهما لم يقربا منه؛ فقد كانا لايشعران بالرغبة فى الأكل ، ومرت بهما السهرة وأوليفييه يجلس تحت أقدامها أو على ركبتيها وهى تدلله كأنه طفل صغير . كادا ألا يتكلما ، فما كانا يملكان مجرد القوة التى تجعلهما يشعران بالسعادة ، كانا قد تحطما . ورقدا فى الفراش قبل الساعة التاسعة واستغرقا فى نوم عميق .

فى اليوم التالى بدأت أنطوانيت تعانى من صداع أليم، بالرغم من أنها

تخلصت من الهم الذى كان يثقل قلبها ، وخيل إلى أوليفييه أنه بدأ أخيرا يتنفس بحرية. ، لقد أنقذ ، أنقذته أخته ، أخته التى أدت رسالتها على أكمل وجه ، أما هو فقد أثبت أنه جدير بما علقت عليه أخته من آمال، ولأول مرة بعد سنوات طويلة استسلما للكسل ، ظلا راقدين حتى الظهيرة ، يتحدث كل منهما إلى الآخر من سريره ، وقد تركا باب الغرفة مفتوحا . كل منهما يرى الآخر فى مرآة كانت بالغرفة تعكس صورة وجهيهما اللذين يفيضان بالسعادة وإن بدا عليهما الانتفاخ من شدة التعب ، كانا يبتسمان ، ويتبادلان القبلات من بعيد ، ثم يغلبها النعاس من جديد فيراقب كل منهما صاحبه أثناء نومه وقد حطمتهما شدة التعب، فأصبحا لايقويان إلا على النطق ببعض الكلمات الرقيقة القصيرة .

ظلت أنطوانيت تدخر قرشا على قرش حتى يصبح لها ولأخيها مبلغ صغير يلجأان إليه فى حالة المرض . ولم تكن بعد قد أخبرت أوليفييه بالمفاجأة التى تعدها له بهذا المبلغ . وفى اليوم الذى تلا نجاحه أبلغته أنهما سيرحلان لقضاء شهر فى سويسرا مكافأة لهما على السنوات الماضية المليئة بالشقاء . ولما كان أوليفييه واثقا من قضاء ثلاث سنوات فى مدرسة المعلمين العليا على نفقة الدولة ومن الالتحاق بوظيفة بعد تخرجه فقد أصبح فى إمكانهما الإسراف فى النفقات حتى ولو أدى ذلك إلى استنفاد كل ما يملكان من مال . واستقبل أوليفييه هذا النبأ بصيحات من الفرح ، أما أنطوانيت فكانت أسعد منه ، كانت سعيدة بنشوة أخيها وسعيدة لأنها ـ أخيرا ـ ستحظى برؤية الريف مرة أخرى ، وكانت فى شدة الشوق إليه .

شغلتها استعدادات السفر بدرجة بالغة ، ولكنها كانت تسعد كل لحظاتها ، وعندما سافرا كان قد انقضى جزء من شهر أغسطس . ولما لم يكونا قد تعودا من قبل كثرة السفر فإن أوليفييه لم ينم الليلة السابقة للرحيل ،

كما أنه لم ينم فى الليلة التى قضاها فى القطار ، فقد خشى طوال اليوم أن يفوتها القطار . وفى المحطة أسرعا فى اضطراب وسط الحشود المتدفقة . ثم ركبا فى ديوان بالدرجة الثانية حيث جلسا وهما متضايقان ولم يجدا شيئا يستندان عليه ليناما ، وكانت هذه هى إحدى الامتيازات التى تحاول بواسطتها الشركات الفرنسية المغالية فى ديمقراطيتها حرمان المسافرين الفقراء من الراحة؛ لتتيح للأثرياء فرصة التفكير فى أنهم وحدهم الذين ينعمون بالراحة ، ولم يغمض لأوليفييه جفن لحظة واحدة . لم يكن متأكدا من أن قطاره هو القطار المطلوب ، فظل يترقب أسماء المحطات . أما أنطوانييت فكان يداعبها النعاس ، أخذت تستيقظ من حين إلى آخر ، كانت حركة العربات تهز رأسها هزا عنيفا ، وكان أوليفييه ينظر إليها على ضوء المصباح الحزين الذى يعلو التوابيت المتجولة ، وقد أدهشه تغير ملامحها . بدت عيناها غائرتين وتركت فمها الذى يشبه فم الطفل ينفتح قليلا فى ملل وسأم. كان لون بشرتها مصفرا ، كما أن تجاعيد صغيرة كانت قد أذبلت خدودها حيث بدت آثار الأيام البائسة ، أيام الحزن واليأس . وبدا عليها تأخير السفر ، ولكنها لم تشأ أن تفسد على شقيقها فرحته ؛ ولهذا أرادت أن تقنع نفسها بأن التعب هو الذى يسبب لها هذه الآلام التى لم تلبث زيارتها للريف أن تبددها . آه ! كم كانت تخشى أن تمرض أثناء الطريق وأحست أنطوانييت أن أوليفييه ينظر إليها ، فتخلصت بجهد من حالة الخمود التى كانت تخيم عليها ، ثم فتحت عينيها اللتين ظلتا صافيتين ناصعتين تفيضان شبابا ، واللتين قد يمر فيهما من حين إلى آخر نظرة خوف لا إرادى تشبه مرور السحب فوق بركة صغيرة . وسألها أوليفييه عن حالتها بصوت خافت وقلق يملؤه الحنان . فأمسكت بيده وأكدت له أنها بخير . فكلمة عاطفية واحدة كانت كفيلة بأن تعيد إليها حيويتها . عندما بسط الفجر أضواءه الوردية فوق الريف الشاحب بين بلدة دول دى بونترلييه ظهر منظر الحقول

وهى تستيقظ والشمس الباسمة وهى تهرب مثلهما من سجن الشوارع والمنازل المتربة ودخان باريس الكثيف ، كان الضباب الخفيف يلف المراعى التماوجة بأنفاسه البيضاء كاللبن . وكانت كل معالم الطريق تستوقف انتباه أنطوانيت وأخيها : برج صغير لكنيسة إحدى القرى ، جدول ماء يشق طريقه ، مجموعة من التلال ترسم خطأ أزرق يحلق الأفق البعيد ، صوت أجراس خافتة حزينة يأتى بها النسيم من بعيد إلى أسماعهم عندما يتوقف القطار وسط الريف الناعس ، وقطيع من الأبقار يقف فى هيئة وقورة مستسلماً للأحلام على مرتفع فوق الطريق . كل هذه الأشياء كانت تلفت نظر أنطوانيت وكذلك أخيها ، بدا كل شىء فى نظرهما جديدا ، كانا كشجرتين جفتا تستقبلان مياه الأمطار بشغف كبير !

من الصباح كان عليهما أن يمرا بالجمارك السويسرية فى محطة صغيرة وسط الريف ، كانا يشعران بالتعب إثر ليلة سفر شاقة ، وكانا يرتعدان قليلا من برودة الفجر ورطوبته، ولكن الهدوء كان سائدا ، والسماء صافية ، وأنفاس المروج تصعد من حولها فتدرك الأبدان والألسن ثم تتغلغل فى الحناجر حتى تصل إلى داخل الصدور كأنها جدول صغير . وتناول أوليفييه وأخته على منضدة فى الخلاء فنجانا من القهوة الساخنة المنعشة الممزوجة باللبن الدسم العذب الذى يشبع برائحة الأعشاب وزهور الحقول .

ثم ركبا بعد ذلك عربات القطار السويسرى ، وكان معدا بطريقة حديثة سرا لها سرور الأطفال . ولكن أنطوانيت كانت تشعر بخمول شديد ، ولم تعرف سببا لهذا الاضطراب الذى تملكها ، ولم تشعر إلا بقسط ضئيل من السعادة ؛ مع أنها كانت ترى كل شىء جميلا من حولها وممتعا للغاية ، فذلك هو كل ماتمنته منذ سنوات ، سفر جميل وشقيقها بجانبها وسط الطبيعة الجميلة ، بعد أن زالت من أمامها هموم المستقبل ، ومع هذا أخذت

تلوم نفسها على هذا التفكير وترغم على الإعجاب بها تشاهد وعلى مشاركة أخيها مرحه الساذج .

وتوقفا فى بلدة تون . كان عليهما أن يرحلا منها إلى الجبل فى اليوم التالى ولكن حدث ـ وهما بالفندق أثناء الليل ـ أن انتابت أنطوانيت حمى شديدة مع قىء وآلام فى الرأس . ولم يلبس أوليفييه أن طار عقله وقضى ليله وهو فى أشد حالات القلق ، وفى الصباح كان لابد من استدعاء الطبيب ، وكانت تلك زيارة غير منتظرة فى المصاريف ، ولا هى يسيرة بالنسبة لميزانيتها المحدودة . لم تكن أنطوانيت فى خطر، ولكن الطبيب وجدها فى حالة إرهاق بالغة وانهيار فى صحتها . لم يعد هناك أى تفكير في مواصلة الرحلة بعد ذلك؛ فقد حذر الطبيب من القيام بشىء طول اليوم، وأفهمها أنها ربما احتاجت إلى الإقامة فى تون مدة أطول، أسفا لذلك ولكنهما سعيا للتخلص من هذه الشدة بهذا الثمن البسيط بعدما ساورهما من مخاوف . وكان من الصعب عليهما أن يقطعا كل هذه المسافة ليحبسا نفسيهما فى غرفة بهذا الفندق رديئة التهوية تضرب فيها الشمس المحرقة كما لو كانت بيتا زجاجيا لتربية النباتات . أبدت انطوانيت رغبتها فى أن يخرج أخوها للنزهة . وخطا أوليفييه بضع خطوات خارج الفندق ورأى جبل الأر بروائه الأخضر الجميل فيما ظهرت على البعد قمة بيضاء تحلق فى أعلى السماء . اضطرب أوليفييه من السرور أمام هذا المنظر ، ولكنه لم يقو على التمتع بمثل هذه البهجة بمفرده، فعاد مسرعا إلى غرفة شقيقته وقص عليها كل مارآه . ولما أبدت أنطوانيت دهشتها لعودته المبكرة وحثته على مواصلة نزهته أجابها كما كان يجيبها فى الماضى عندما يعود من إحدى حفلات شاتليه الموسيقية :

لا لا ، إنها مناظر جميلة للغاية ، ويؤلمنى ألا نراها معًا .

لم يكن هذا الشعور جديدا بالنسبة إليها . كانا على يقين أنه لابد أن

يكونا معا ليكونا فردا كاملا ، ولكن كان كل منهما يجد لذة كبيرة فى أن يسمع أخاه يؤكد له ذلك . كانت هذه الكلمات الرقيقة أقوى أثرا على أنطوانيت من أى دواء لدرجة جعلتها تبتسم لها فى سعادة وفتور . وبعد أن قضت ليلة هادئة ، ورغم أن مواصلتها للسفر كانت تعرضها لشىء من الخطورة فقد قررت أنطوانيت أن يهربا فى ساعة مبكرة دون إخطار الطبيب الذى خشيا أن يحجزها مدة أخرى . كانت مجازفة مرت بسلام ، فالهواء النقى وسرور أنطوانيت لرؤيتها الأشياء الجميلة مع أخيها جعلاهما يصلان دون متاعب جديدة إلى نهاية الرحلة ، إلى قرية فى الجبل تطل على بحيرة قريبة من بلدة سبير.

قضيا ثلاثة أسابيع فى أحد الفنادق الصغيرة . لم تعاود الحمى أنطوانيت، ومع ذلك لم تعد كما كانت . أخذت تشعر بثقل فى رأسها غير محتمل ، وبانحراف فى صحتها . كان أوليفييه يستفسر كثيرا عن صحتها ؛ إذ كان يتمنى أن يرى وجهها أقل شحوبا ، وكان جمال البلدة يسكره فيحاول بغريزته إبعاد الأفكار الكئيبة عن نفسه ويميل إلى تصديق أنطوانيت عندما تؤكد له أنها بصحة طيبة ، رغم معرفته داخليا أن الحقيقة غير ذلك . ومع هذا كانت تتمتع بما يبدو على أوليفيية من فرحة ، كما كانت تستمتع بالهواء وبالراحة متعة من تستريح بعد تلك السنوات الشاقة .

كان أوليفييه يريد أن يصحبها فى كل نزهاته ، وكان بودها أن تشاركه فى جولاته ، لكن كثيرا ماحدث أن ذهبت معه وكلها حماس ، إلا أنها كانت تضطر بعد ثلث ساعة إلى التوقف عن السير وهى تلهث وقلبها يخفق . كان أوليفييه يواصل جولاته وحده ، ويتسلق الجبال التى لا خطورة فى تسلقها ، ومع هذا كانت أخته ترتجف خوفا عليه حتى ساعة عودته . وفى مرات كانا يقومان بنزهات قصيرة فتتكىء على ذراعيه ويسيران فى خُطًا بطيئة وهما

يتجاذبان أطراف الحديث ، ويكثر أوليفييه من الكلام ،ويضحك وهو يحدثها عن مشروعاته ، أو يقص عليها ما يضحكها ، ومن طريق جانبى فى أعلى الوادى كانا يريان السحب البيضاء وهى تنعكس فى مرآة البحيرة الساكنة ، والسفن وهى تسبح كالحشرات التى تطفو فوق مياه بركة صغيرة . وكانا يستنشقان الهواء دافئا ممزوجا بالموسيقا التى تنبعث من الأجراس المعلقة برقاب البقر وتحملها الرياح من بعيد ومعها رائحة الحشائش المقطوعة والأصماغ الدافئة . ويستسلمان معا لأحلام الماضى ولأحلام المستقبل ولأحلام حاضرهما الذى بدا له أجمل الأحلام وأكثرها سحرا ، كانت أنطوانيت تستسلم أحيانا لمرح شقيقها الصبيانى فتلهو معه ويجريان أحدهما وراء الآخر أو يتقاذفان الحشائش . وأخيرا رأى أوليفييه شقيقته تضحك كما كانت تفعل فى الصغر ، فى عهد الطفولة الذى لا يعبأ بشىء . تلك الضحكة التى لم يسمعها منذ سنوات ، والتى تشبه مياه الينبوع فى صفائها .

لكن أوليفييه كان لا يستطيع غالبا أن يقاوم رغبته فى القيام برحلات طويلة وبعد عودته يشعر بشىء من تأنيب الضمير . حدث أن لام نفسه لأنه لم يستمتع كما ينبغى بالأحاديث الحبيبة إلى نفسه مع شقيقته ، وكثيرا ماكان يتركها بمفردها فى الفندق . وظلا مبتعدين عن النادى الاجتماعى للشبان والشابات ، إلا أن أوليفييه انجذب نحوه رغم خجله ؛ فقد كان محروما من الأصدقاء حتى ذلك الحين . ولم يعرف من الأصدقاء إلا الفظين منهم فى الليسيه وصديقاتهم المنفرات . وشعر بشىء من السعادة لوجوده بين فتيان وفتيات فى سنه ، مؤدبين محبوبين ومرحين . وبالرغم من نفور أوليفييه من الناس كان محبا للاستطلاع فى شىء من السذاجة، وكان له قلب عاطفى ذو إحساسات برئية . ينجذب لتلك الأضواء الخافتة التى كانت تلمع فى أعين النساء المحيطات به . كان هو أيضا يعجبهن على الرغم

من خجله . كانت تلك حاجته البريئة إلى أن يحب ويشعر بأنه محبوب تضفى عليه ـ دون علمه ـ لونا من مرح الشباب، وتجعله يتكلم ويأتى بحركات وبأعمال محبوبة لايلبث مابها من خجل أن يجعلها أكثر جاذبية . كان جذابا بطبيعته ،وبالرغم من أن ذكاءه الذى أصبح حاد السخرية فى وحدته ، أظهر له من سفه الناس وعيوبهم مايجعله يبغضهم ، وبالرغم من ذلك كله كان أوليفييه عندما يتواجد أمامهم لايرى إلا عيونهم التى تعبر عن نفوس ستموت يوما ما ، نفوس أشخاص لن يكون لهم إلا حياة واحدة مثله، سينفقدونها مثله فى زمن قريب ، عندئذ يشعر نحوهم بعطف غير إرادى ولايجد فى نفسه القدرة على أن يأتى نحوهم بأى أذى ، وسواء أراد أو لم يرد فهو يشعر أن عليه إبداء المرح . كان أوليفييه ضعيفا وهذا يعجب الناس الذين فى استطاعتهم مغفرة كل الرذائل والفضائل فيما عدا القوة وهى أساس كل شىء .

لم تندمج أنطوانيت فى هذا الجمع من الشباب ؛ إذ كانت صحتها المعتلة وضعف حالتها المعنوية دون سبب تشلانها ، وقد حدث خلال السنوات الطويلة التى قضتها وسط الهموم والعمل المضنى بما يبلى الجسد والروح أن انقلبت الأوضاع ، وقامت بواجب الشقيق فابتعدت عن العالم ولم تتمكن من العودة إليه . أصبحت تمل الأحاديث والضوضاء والضحك والتفاهة ، بل كثيرا مايجرح شعورها وتتألم وتود لو شابهت الفتيات الأخريات وأن تهتم بما يهتممن به ، تضحك لما يضحكهن . كانت تشعربانقباض وكأنها ماتت، وفى المساء كانت تغلق غرفتها ، وكثيرا ما كانت تبقى فى الظلام دون أن تشعل المصباح ،فيما يجلس أوليفييه فى الصالون فى الطابق الأسفل يستسلم لحب عارض خيالى ، وهى إحدى الحالات العاطفية التى تنتابه . ولاتخرج أنطوانيت من خمولها إلا عندما تسمع شقيقها يعود إلى الطابق الأعلى

وهو يضحك ويثرثر مع صديقاته ويبادلهن على باب غرفتهن تحيات الوداع . كانت انطوانيت تبتسم وسط الظلام وتنهض لتوقد المصباح ، فضحكة أخيها كانت تبعث فيها الحياة .

كان الخريف قد اقترب وبدأت الشمس تنطفىء شيئا فشيئا ، والطبيعة تذبل ، والألوان تفقد زهوتها تحت غيوم وسحب شهر أكتوبر . وسقط الثلج فوق المرتفعات وكسا السهل الضباب . فرحل المسافرون أفرادا وجماعات وعمت الكآبة على الجميع لفراق الأصدقاء ، وحتى الغرباء ، وكذلك رحيل فصل الصيف ، فصل السكون والسعادة كروضة وسط الحياة .

تنزه الشقيقان معًا مرة أخيرة وسط غابة على سفح الجبل ، ولم يتحدثا ، كانا يحلمان فى تأثر ويقترب كل منهما من الآخر وهما يرتجفان من البرد وقد التفا فى معطفيهما ، وسارا متشابكى الأصابع . كانت الخمائل الرطبة صامتة وكأنها تبكى فى سكون فيما كانت تأتى من أعماق الغابة صرخات خافتة وخائفة لطير وحيد شعر باقتراب الشتاء ، ثم رنين جرس لقطيع يدوى فى الضباب بعيدا لايكاد يسمع وكأنما يدق فى أعماق صدريهما . عادا إلى باريس وهما مكتئبان ولم تستعد أنطوانيت صحتها .

كان على أنطوانيت أن تهتم بما يلزم أوليفييه من ملابس عند عودته إلى المدرسة فكلفها ذلك ما ادخرته ، بل باعت حليها سرا ، على أمل أن يعوضها فى المستقبل كما أنها لن تحتاج إلى شىء . كانت تمنع نفسها من التفكير فيما سيحدث لها بعد أن يصبح أوليفييه بعيدا عنها ، وأخذت تعمل فى تجهيز ملابسه ، بكل ما لديها من حنان وحب نحوه على اعتبار أن هذا آخر ما تقدمه له .

أصبحا لا يفترقان فى الأيام الأخيرة التى يقضيانها معا خشية أن تضيع منها لحظة واحدة . وسهرا معا فى الليلة الأخيرة بجانب المدفأة : أنطوانيت جالسة على المقعد الوحيد فى المنزل، وأوليفييه على معقد صغير تحت قدمى أخته تاركا إياها تلاطفه ، فقد اعتاد أن يكون معها كالطفل الكبير المدلل . كان مشغول البال ومهتما أيضا بالحياة الجديدة التى هو مقبل عليها . خطر لأنطوانيت أن ما بينهما من ود عميق قد انتهى، وأخذت تتساءل فى فزع عما عساه يحدث لها وكأنما أراد أوليفييه أن يزيد من آلامها فأبدى فى هذه الليلة من الحنان مالم يبده أبدا ، تماما كما يفعل أولئك الذين ينتظرون ساعة الرحيل ليظهروا في دلال برىء أحسن مافى نفوسهم وأرقه . جلس أمام البيانو وأخذ يعزف طويلا أنغام موزار وجلوك التى كانا يعشقانها أكثر من غيرها . تلك الأنغام التى تصور لمحات من السعادة والحنان كما تصور من صفاء النفس الحزينة والتى كثيرا ما اختلطت بأحداث حياتهما الماضية .

حانت ساعة الفراق، ورافقت أنطوانيت أخاها حتى باب المدرسة، ثم عادت إلى المنزل لتجد نفسها وحيدة مرة أخرى ، فالحال تغير عما كان عليه أثناء رحلتها إلى ألمانيا ؛ إذ لم يعد فى استطاعتها أن تضع لنفسها حدا للفراق إذا لم تتحمله ، أما هذه المرة فبقيت هى ورحل أوليفييه إلى أمد بعيد ، رحل لمدى الحياة .

كانت تشعر نحو أخيها فى اللحظات الأولى للفراق أكثر مما تفكر فى نفسها . وشغلت نفسها بتلك الأيام الأولى من حياته الجديدة التى اختلفت تماما عن حياته السابقة . أخذت تفكر فى ألاعيب تلاميذ تلك المدرسة، وفى هذه المضايقات البسيطة التى كثيرا ما تتخذ أشكالا مخيفة فى أذهان أولئك الذين يعيشون فى الوحدة ، والذين اعتادوا مثل أنطوانيت تعذيب أنفسهم بالتفكير فيمن يحبون . ولو أن هذا الانشغال عاد عليها بفائدة ؛ إذ خفف

بعض الشيء من وحدتها . وسرعان ما فكرت فى نصف الساعة التى سترى شقيقها خلالها فى اليوم التالى فى قاعة استقبال المدرسة ،ووصلت إلى هناك قبل موعدها بربع ساعة . وكان اوليفييه لطيفا معها غير أنه كان مشغولا ومسرورا بما رآه من حياته الجديدة . وعادت لزيارته فى الأيام التالية وهى تفيض حبا وقلقا عليه .

وازداد التباين بينهما على مقدار اهتمام كل منهما بتلك اللحظات التى يلتقيان فيها . كانت تلك اللحظات بالنسبة لأنطوانيت كل شىء فى الحياة. أما أوليفييه فإنه كان يحب أخته إلا أن أحدا لايستطيع أن يطالبه بأن يفكر فى أخته وحدها . ولقد حدث مرة أو مرتين أن جاء متأخرا إلى قاعة الاستقبال ، ولما سألته فى أحد الأيام إن كان يتضايق أجابها بالنفى . كانت تلك الأشياء كضربات خفيفة من خنجر تسدد نحو قلب أنطوانيت ، عاتبت نفسها على هذه الحساسية من ناحيتها واعتبرت نفسها أنانية ، فكانت تعلم جيدا عدم استطاعته الاستغناء عنها وعدم استطاعتها الاستغناء عنه ، فهو هدفها فى الحياة بطريقة لا تعقل ؛لأنه أمر مخالف للطبيعة . كانت تعرف كل ذلك بلا فائدة ! إنها لاتقوى على شىء طالما وهبت كل حياتها منذ عشر سنوات للتفكير فى شىء واحد : فى أخيها . وبعد أن انتزع منها الشىء الوحيد الذى يهمها فى الحياة ، أصبحت لا تملك شيئا .

حاولت بكل شجاعتها أن تشغل نفسها بأعمالها ، بالقراءة والموسيقا والكتب المحببة إليها بعد أن أصبح شكسبير وبتهوفن لامعنى لهما بغير أخيها ، كانا شيئا جميلا ، ولكن لم يعد يوجد أوليفييه فما فائدة الأشياء الجميلة إذا لم ترها عيون الإنسان الحبيب ؟ ماذا تفعل بالجمال والهناءة إذا لم تشعر بهما فى قلب من تحب ؟

لم تكن تملك القوة التى تستطيع بها أن تغير مجرى حياتها نحو هدف آخر، ولكنها كانت منهكة . حقا لم يعد هناك ما يضطرها للمقاومة، ولكن المجهود الذى فرضته على نفسها أوجد المرض الذى تمكن من جسدها المستعد له منذ أكثر من عام ،ولم تعد قادرة على التغلب عليه بنشاطها كما كانت تفعل .

أخذت تقضى لياليها فى المنزل وحيدة ، مستسلمة لهمومها وهى جالسة إلى المدفأة المطفأة ، لم تكن تملك الشجاعة لتشعل نارها مرة أخرى ، ولم تكن تملك مجرد القوة التى تساعدها على الذهاب إلى الفراش ، فتظل جالسة ترتعد من البرد حتى منتصف الليل مستسلمة للنعاس والأحلام ، وتبدأ فى استعادة ذكرياتها مع من فارقتهم ، ومع أوهامها التى تبددت ، وتشعر بحزن شديد على شبابها الذى ولى بغير حب ، وتشعر بألم لا تعرف مصدره أو لا تريد الاعتراف به ، وهى تشعر به كلما تناهت إلى سمعها ضحكة طفل يمر بالطريق أو وقع خطواته المترددة فى الدور السفلى من المنزل، بأقدامه الصغيرة التى تمشى فوق قلبها . ووقعت فريسة للشكوك ، وللأفكار الشريرة، فريسة للأنانية التى انتقلت عدواها من هذه المدينة اللاهية إلى روحها التى بدأ الضعف يسرى فيها ، كانت تحارب الندم وتخجل من رغباتها، ولم تكن تفهم سببا لما يعتريها من عذاب ، وإن كانت ترجع ذلك إلى الغرائز الشريرة ، فأوفيليا الصغيرة المسكينة التى وقعت بين براثن الشر المجهول ، أخذت تشعر من هذه العاصفة المضطربة التى تصعد من أعماق نفسها ، من أعماق الحياة ، ولم تعد تعمل شيئا . هجرت معظم دروسها ،هى التى كانت تستيقظ مبكرة ، أصبحت لا تغادر فراشها قبل الظهيرة ، بل أصبح الأمر يستوى عندها ، أن تنام أو تستيقظ ، لم تعد تأكل إلا ما يقيم أودها أو لا تأكل على الإطلاق ، إلا أنها بعد ظهر كل خميس

ومنذ صباح كل يوم أحد ، عندما يحصل أخوها على إجازة ، كانت تحاول أن تبدو معه كما كانت فى الماضى .

لم يلاحظ أوليفييه شيئا ، فقد أعجبته حياته الجديدة أو اجتذبته لدرجة جعلته لا يلتفت كثيرا إلى أخته . كان يمر بفترة من فترات الشباب التى لايبوح فيها الشاب بما فى نفسه بسهولة ،والتى يبدو فيها مكترثا بأشياء قد تأثر بها فى الماضى وإن ظهرت أهميتها فيما بعد . فالمتقدمون فى العمر كثيرا ما تظهر لديهم مشاعر أنضر من شباب العشرين ، كما يتمتعون فى براءة بمباهج الطبيعة والحياة أكثر منهم ، فقلوب الشباب أقل حيوية وأكثر فتورا ، وهو قول كثيرا مالا يكون صحيحا ، والواقع أن تظاهرهم بعدم الاكتراث لا يعنى الفتور، وإنما يعنى أن نفوسهم تكون ملكا للعواطف ، والآمال والرغبات والأفكار التى يتمسكون بها . وعندما يبلى الجسد وتخلو الحياة من مطامعها ، تعود الأحاسيس المجردة من الشهوات إلى الظهور من جديد . لقد كان أوليفييه مشغولا بكثير من هذه الأشياء الصغيرة ، كان أهم تلك المشاكل عنده حب صغير لا معنى له . كان دائم الانشغال بأمثال هذه العاطفة فى الحياة ، ولم تكن أنطوانيت تعلم شيئا مما يدور بخلد أوليفييه ، كل مالاحظته أن أخاها بدأ يبتعد عنها ، ولم يكن هو مسئولا كل المسئولية عن ذلك . فأحيانا بينما يكون فى طريقه إلى زيارة أخته يشعر بشوق جارف إلى أن يراها ويتحدث إليها ، ولكنه كان بمجرد أن يلقاها يشعر بالبرودة تسرى إليه . إن الحب القلق والحرارة التى كانت تدفعها إلى التعلق به وإلى امتصاص كلماته والمبالغة فى العناية به وإفراطها فى العاطفة نحوه واهتمامها الزائد بأمره ، هذه الأشياء كانت تفقده الرغبة فى الإفضاء بما فى نفسه ، كان يجب عليه أن يفهم أن أنطوانيت لم تكن فى حالتها الطبيعية ، ولم يكن هناك شىء أبعد من هذا السلوك عن رزانتها ، ورقتها المعتادة . إلا أنه

لم يفكر فى ذلك أبدا . كان يقابل أسئلة أخته بنعم أولا ، وكان يقاوم فى عناء كلما حاولت أن تخرجه من صمته ، بل كان يجرحها بإجاباته القاطعة ، فتلوذ بالصمت وهى تشعر بالحسرة فى قرارة نفسها ، ويمر يومها . يوم آخر يضيع منهما ومايكاد أوليفييه يغادر البيت ليعود إلى المدرسة حتى يشعر بضميره يؤنبه بسلوكه مع أخته . وفى الليل كان يتعذب عندما يفكر فيما أحدثه لها من ألم ، بل كان يحدث أن يشرع ـ بمجرد عودته إلى المدرسة ـ فى كتابة رسالة تفيض عاطفة ، ولكنه يمزقها بمجرد أن يعود لقراءتها فى اليوم التالى . أما أنطوانيت فلم تكن تعلم من ذلك شيئا ، كانت تعتقد أن أخاها لم يعد يحبها .

مرة أخرى حدث لأنطوانيت أن شعرت بآخر بادرة من عواطف الشباب ، وإن لم تكن تلك آخر فرصة لها ، ونهض قلبها فى يقظة يائسة وعاطفة قوية من الحب والأمل فى السعادة . كان عقلها يرفض لأنه يختلف مع طبيعتها الهادئة تماما . كان لابد لها لكى تمر بهذه التجربة العاطفية من هذا الاضطراب الذى تعيش فيه وهذه الحالة من الذهول والإثارة إنذارا بوقوع الشر .

ذهبت مرة مع أخيها لحضور إحدى حفلات شاتليه الموسيقية ، ولما كانت إحدى المجلات الصغيرة قد كلفت أوليفييه عمل النقد الموسيقى للمجلة ، فقد جلس هو وأخته فى أماكن أفضل من التى كانا يجلسان فيها من قبل ، وإن كان الجمهور حولهما أشد سخافة من الجمهور الآخر ، جلسا على كرسيين بالقرب من المسرح . كان على كريستو كرافت أن يعزف فى تلك الليلة . لم يكونا يعرفان هذا الموسيقار الألمانى ، وما إن بدا أمام عينى أنطوانيت حتى شعرت بالدماء تتدفق إلى قلبها ، وبالرغم من أن عينيها المتعبتين لم ترياه إلا من خلا ل غلالة ضبابية ، فلم يكن لديها أدنى

شك ، فبمجرد دخوله عرفت فيه الصديق المجهول ، صديق أيامها التعسة فى ألمانيا . لم تكن قد تحدثت عنه إلى أخيها ، فكانت تجد صعوبة فى التحدث عنه حتى إلى نفسها . ومنذ ذلك الوقت ومشاغل الحياة تحتل كل تفكيرها . كما أنها من ذلك النوع من الفرنسيات الصغيرات العائلات اللاتى يرفضن العواطف الغامضة التى لا يعرفن مصدرها والتى لا مستقبل لها . كان فى أعماق حياتها الروحية المجهولة مخبأ ، رقدت فيه عواطف أخرى كثيرة ربما خجلت من رؤيتها ، كانت تعلم تماما أنها موجودة، ولكنها كانت تحول نظرها عنها نتيجة لخوفها الدينى من الخالق الذى لايمكن للفكر البشرى أن يحيط به .

أفاقت قليلا من اضطرابها، فاستعارت من أخيها منظاره لتشاهد كريستوف ، كانت ترى وجهه من ناحية جانبية وهو واقف فى مكان قيادة الأوركسترا ، وعرفت تعبيرات وجهه الفنية المركزة . كان يرتدى ملابس قديمة لاتناسبه إطلاقا . وتابعت وكأنها تجمدت فى صمتها ، تابعت مشاهدة تطورات هذا الحفل الموسيقى الذى يستحق الرثاء ، والذى عرض كريستوف فيه نفسه للاحتكاك بجمهور أساء استقباله إساءة ساخرة ، هذا الجمهور الذى لم يكن معدا لهؤلاء الفنانين الألمان ؛ ولذلك أجهزت عليه موسيقا كريستوف . وبعد أن عزف إحدى السيمفونيات التى بدت طويلة عاد فظهر ليعزف بعض الألحان على البيانو ، وهنا قوطع بعبارات من الاستهجان لم تدع مجالا للشك فى عدم ارتياح الجمهور لرؤيته مرة أخرى ، ومع ذلك فقد بدأ العزف أمام الجمهور الذى لاحول له ولا قوة، وبدأت الملاحظات الجارحة تسرى بين جمهور المقاعد الخلفية فتنشر المرح فى الصالة ، توقف كريستوف عن عزفه ،وفى عناد الشباب الذى لايبالى بالخطأ أخذ يعزف

بأصبع واحدة لحن أغنية (مالبروج ذاهب إلى الحرب) ثم غادر البيانو ليقول للجمهور : هذا ما يناسبكم . !

مرت لحظة على الجمهور لم يدرك فيها مقصد كريستوف لأول وهلة ، ثم انطلقت الصرخات، وتلا ذلك مشهد لا يمكن تصوره من الضجيج والصفير . وأخذ الكل يصيح ويصرخ : يجب أن يعتذر . . عليه أن يعتذر

وغلت الدماء فى وجوه الناس وهم يستثير بعضهم بعضًا ، وبدءوا يقتنعون بأنهم أهينوا حقا ،وربما كانوا مقتنعين بذلك ، إلا أنهم انتهزوا الفرصة ليتمادوا فى إحداث الضجيج كما يفعل تلاميذ المدارس بعد أن يمضوا ساعتين فى الفصل .

لم تكن أنطوانيت تملك القوة لتتحرك ، كما كانت كالمذهولة ، وتقلصت أصابعها على قفازها فمزقته بحركة خفية . فمنذ بدأت الأنغام الأولى للسيمفونية تنبأت بما سيحدث ، كانت تتوقع من الجماهير هذا العداء الصامت وتشعر به وهو ينمو شيئا فشيئا ، وكانت تقرأ على وجه كريستوف أنه لن يذهب بلحنه إلى النهاية دون أن يحدث انفجار ما . وانتظرت هذا الانفجار، وهى تشعر بالاضطراب المتزايد ، وأخذت تجمع قواها لتمنع هذا الانفجار ، لكنه وقع وحدث بالضبط كما كانت تتوقعه . شعرت معه بأن يد القدر تسحقها فلا تستطيع لها ردا .

وبينما هى لا تكف عن النظر إلى كريستوف الذى يحملق بتحد فى الجماهير الثائرة التقت نظراتها . ربما عرفها كريستوف بعينه إلا أنه لم يستطع أن يتعرف عليها بذهنه وسط العاصفة ، فهو لم يعد يفكر فيها واختفى وسط سيل من الصفير .

ودت لو تصرخ ، لو تقول أى شىء ، لكنها كانت تشعر بأنها مقيدة كما

لوكانت فى كابوس . وخففت من ألمها أن سمعت صوت أخيها الذى لم يدرك ما كان يدور داخل نفسها والذى شاركها ألمها وازدرائها للجمهور ، كان أوليفييه موسيقيا أصيلا ذا ذوق حر لم يستطع شيء أن ينال منه ، فهو إذا أحب شيئا أحبه حتى لو خالفه الناس جميعا . وما كاد يسمع النغمات الأولى من السيمفونية حتى أدرك أن شيئا عظيما لم تألفه حياته من قبل يحدث، فأخذ يردد بصوت خافت ولكن بحرارة بالغة :

كم هى رائعة هذه الموسيقا ، هى رائعة !

فى حين أخته أخذت تقترب منه بطريقة لا إرادية كأنها تقترب لتشكره على مايبديه من ملاحظات ، وما كادت السيمفونية توشك على الانتهاء حتى أخذ أوليفييه يصفق تصفيقا حادا احتجاجا حادا على عدم اكتراث الجمهور وسخريته .

ولما حدثت الضجة خرج أوليفييه عن شعوره وهب هذا الشاب الخجول واقفا وأخذ يصرخ معلنا أن كريستوف على حق ،وأخذ يخاطب فى عنف الذين يطلقون الصفير كأنما يريد أن يتشاجر معهم . ولكن صوته ضاع وسط الضجيج . وهكذا رد الجمهور عليه بألفاظ بذئية ،ووصفوه بالحمق ونصحوه بأن يذهب لينام . ولما كانت أنطوانيت تعلم أن لا جدوى من تمرد شقيقنها على الجمهور فقد شدت أوليفييه من ذراعه وهى تقول :

– اسكت ،أرجوك . . اسكت .

فعاد إلى الجلوس يائسا وهو مازال يزمجر قائلا :

ياللعار ! ياله من عار أيها المساكين !

أماهى فلم تقل شيئا . كانت تتألم فى صمت حتى ظن أوليفييه أنها لا تشعر بجمال هذه الموسيقا . فقال لها :

– أنطوانيت ، ألا تجدين أنت أن هذه الموسيقى جميلة ؟

أومأت برأسها وظلت جامدة ولم تستطع أن تعود إلى طبيعتها ، ولكن عندما شرع الأوركسترا فى عزف مقطوعة أخرى ، قامت فجأة من مكانها وهى تهمس برنة لاتخلو من الكراهية :

هيا ، هيا ، لم أعد أتمكن من رؤية هؤلاء الناس . غادروا المكان مسرعين . وفى الطريق كان أوليفييه يتأبط ذراع أخته وهى يتكلم بحدة ، أما أنطوانيت فسارت صامتة .

قضت أنطوانيت الأيام التالية وحيدة فى غرفتها . ألقت بنفسها فى عاطفة تحاول تجنبها ، إلا أنها كانت تلح عليها من خلال أفكارها كأنها طرقات الدماء تدق رأسها فتحدث لها الألم .

مضت فترة أتاها أوليفييه بعدها بكتيب يحتوى على مجموعة من ألحان كريستوف اكتشفه أخيرا عند أحد الناشرين . فتحته مصادفة وما كاد بصرها يقع على أول صحيفة منه حتى وجدت نفسها تقرأ على رأس إحدى المقطوعات إهداء مكتوبا بالألمانية : « إلى ضحيتي الصغيرة الحبيبة المسكينة» وقد ذيل هذا الإهداء بتاريخ .

كانت أنطوانيت تعرف جيدا هذا التاريخ ، اضطربت لدرجة لم تستطع معها أن تواصل القراءة، تركت الكتيب وانصرفت إلى غرفتها بعد أن توسلت إلى أخيها أن يقوم بالعزف على البيانو . أغلقت عليها الباب ، وبدأ أوليفييه الذى استهوته هذه الموسيقا الجديدة فى العزف دون ملاحظة التأثر الذى طرأ على أخته ، وجلست هى فى غرفتها المجاورة تحاول أن تسيطر على ضربات قلبها ، وفجأة قامت من مكانها وأخذت تفتش فى دولاب ملابسها عن دفتر صغير كانت تقيد فيه مصروفاتها ، وبحثت عن تاريخ مغادرتها لألمانيا لتقارنه

بهذا التاريخ الغامض . كانت تعرفه من قبل . كان ذلك ليلة العرض التى حضرتها مع كريستوف ، واستلقت على فراشها وأغمضت عينيها وهى تشعر بشىء من الخجل ، وضغطت بيدها على صدرها وأخذت تستمع إلى الموسيقا الحبيبة . كان قلبها ينبض بالعرفان ، ولكن لما ذا تشعر بهذه الآلام فى رأسها ؟ ! .

رأى أوليفييه أن أخته لزمت غرفتها ، فأنهى عزفه ودخل إليها ليجدها مستلقية ، سألها عما يؤلمها فأجابت : إنه مجرد تعب ، ثم قامت لتجلس معه . أخذا يتحدثان إلا أن أنطوانيت لم تجب بسرعة عن أسئلة أخيها . كانت كأنها تعود من مكان بعيد ، ثم ابتسمت وبدا عليها الخجل ، واعتذرت بأن صداعا شديدا يكاد يحطم رأسها ، وأخيرا خرج أوليفييه ، وقد طلبت منه أن يترك لها دفتر الألحان ، وظلت طويلا فى الليل بمفردها جالسة على البيانو فى هدوء شديد ، خشية إزعاج جيرانها وتذمرهم ، لم تقرأ طويلا واستمرت أغلب الوقت يتملكها دافع عرفان الجميل والحنان لهذه النفس التى عطفت عليها ، فقد قرأ فى نفسها بما لطيبة القلب من إدراك عجيب خفى ، ولم تستطع أن تركز أفكارها . كانت تشعر بالسعادة والبؤس فى آن . ولكم كان يؤلمها صداع الرأس !

قضت ليلتها وسط أحلام مؤلمة وكآبة مضنية . وفى الصباح أرادت ان تخرج قليلا ؛ لكى تقاوم حالة الخمود التى تملكتها ، ولكى تجعل لخروجها هدفا ، ذهبت زعم استمرار الآلام لإحضار بعض المشتريات من أحد المحال الكبيرة ، ولم تكن تفكر فيما تفعل .

كانت تفكر فى كريستوف دون أن تعترف لنفسها بذلك ، وبينما هى خارجة وسط الازدحام متعبة وتكاد تموت حزنا ، رأت كريستوف يمر على الرصيف على الجانب الآخر من الشارع . رآها كريستوف فى اللحظة نفسها .

وفى الحال ودون تفكير مدت أنطوانيت يدها إليه وتوقف كريستوف عن السير . عرفها هذه المرة! وبينما هو يندفع وسط الطريق ليتجه نحو أنطوانيت ، وبينما تحاول أن تذهب هى للقائه ، إذا بأفواج الناس المتزاحمة تتقاذفها فى عنف كما لو كانت عودا من القش . ويعترض الطريق حصان يجر سيارة ركاب وهو يسقط على الشارع المزلق فيقيم سدا أمام كريستوف تجمعت عنده عربات محدثة حاجزا لايمكن اختراقه . ورغم ذلك كله صمم كريستوف على أن يمر، ولكنه وجد نفسه وسط العربات لا يتمكن من التقدم أو التراجع ، وعندما نجح فى التخلص من هذا الازدحام والوصول إلى المكان الذى رأى فيه أنطوانيت ، كانت قد ابتعدت كثيرا . فقد حاولت عبثا أن تقاوم هذا السيل البشرى ثم استسلمت لأمرها ولم تحاول الجهاد . فقد انتابها شعور بأن هناك قَدَرًا جاثماً عليها يعارض مقابلتها لكريستوف ، ومامن قوة تستطيع شيئا أمام القدر . ولما نجحت فى الخروج من وسط الجموع لم تحاول أن تعود أدراجها . فقد تملكها الخجل . ماذا يمكن أن تتدله؟ وماذا تجسر عليه ؟

وماذا سيظن بها ؟ وهكذا فرت عائدة إلى منزلها .

لم تشعر بالطمأنينة حتى وصلت إلى البيت . وعندما دخلت حجرتها ظلت جالسة فى الظلام أمام المنضدة دون أن تقوى على خلع قبعتها وقفازها . كانت بائسة ؛ لأنها لم تستطع التحدث إليه ، وفى الوقت نفسه كان ضوء ينير قلبها ، فلم تعد ترى الظلام ، ولم تشعر بالألم الذى كانت تعانيه . استمرت تستعيد فى خيالها كل تفاصيل هذا المشهد الذى وقع ، وتغيره ، فتتخيل ما كان يحدث لو أن الظروف تغيرت وترى نفسها وهى تمد ذراعها لكريستوف ، ثم ترى عبارات الفرح ترتسم على وجهه عندما تعرف عليها ، فتضحك ويحمر وجهها خجلا . وفى ظلام الحجرة حيث لايمكن لأحد أن

يراها وهى وحدها مدت إليه ذراعها مرة أخرى .كان هذا الشعور أقوى منها، كانت تشعر أنها راحلة ، فتحاول بالغريزة ، أن تتعلق بهذه الحياة القوية التى تحف بها والتى بعثت إليها بنظرة تملؤها المحبة .أما قلبها المليء بالحنان والفزع فكان يناديه فى الليل بقوله :

- أنقذنى ! أنقذنى !

قامت لتشعل المصباح ولتأخذ ورقة وقلما ، وكتبت لكريستوف . لم تكن تفكر أبدا وهى الخجولة المترفعة أن تكتب إليه لولا أنها كانت فريسة للمرض. ولم تكن تدرك ما تكتبه ؛ إذ أنها فقدت السيطرة على نفسها، فكانت تناديه وتبوح له بحبها ، ولكنها توقفت منفزعة وأرادت أن تعيد كتابة الرسالة ، ولكن مجهودها تحطم ، وكان رأسها خاويا ، مرتفع الحرارة ، ووجدت صعوبة هائلة فى إيجاد الكلمات ؛إذ كان التعب يضنيها .كانت خجولة، ولكن مافائدة ذلك ، فهى تعلم جيدا أنها تخدع نفسها وأنها لن ترسل هذه الرسالة أبدا ، وحتى لو أرادت فكيف ترسلها إليه ؛ فهى لاتعرف له عنوانا . وماذا يمكنه أن يفعل لها حتى إذا علم بكل شيء رغم مايكنه لها من طيبة . لقد فات الأوان . فكل ذلك عبث ، إنها محاولة أخيرة لطير يختنق ويخفق بجناحيه فى جنون . وعليها أن تستسلم .

ظلت طويلا أمام منضدتها مستغرقة فى أفكارها غير قادرة أن تنتزع نفسها من سكونها .كان الليل قد انتصف عندما قامت بعناء وشجاعة ووضعت ـ كما تعودت دائما ـ مسودة رسالتها داخل كتاب فى مكتبتها الصغيرة؛ إذ لم تقو على ترتيبها أو تمزيقها . ونامت وهى ترتعد من الحمى .

بدأ ينكشف سر هذه المحاولة ، وشعرت أن إرادة الرب تتم ، وإذا براحة كبيرة تغمرها .عاد أوليفييه من المدرسة صبيحة يوم الأحد ليجد أنطوانيت

طريحة الفراش وقد بدا عليها شيء من الهذيان . جاء الطبيب فقرر أنها أصيبت بذبحة صدرية حادة !

كانت أنطوانيت فى الأيام السابقة قد بدأت تدرك مدى خطورة هذه الحالة ، واكتشفت أخيرًا سبب ذلك الاضطراب المعنوى الذى كان يلازمها ، كانت المسكينة تخجل من نفسها ، لما يمر بها من هواجس ، لكنها شعرت بارتياح عندما أدركت أن المرض هو الذى سبب لها تلك الاضطرابات النفسية ،ووجدت أن لديها المقدرة على اتخاذ بعض الاحتياطات ، فأشعلت النار فى أوراقها ، وكتبت رسالة للسيدة ناتان ترجوها فيها أن تقبل الإشراف على أخيها فى الأسابيع الأولى بعد موتها (ولم تجرؤ على كتابة هذه الكلمة) .

عجز الطبيب على فعل شيء ، فالمرض كان بالغ الخطورة ،كانت سنوات التعب الطويلة قد أنهكت قواها ، إلا إنها ظلت هادئة ، فمنذ شعرت أنها تقترب من النهاية وهى تتخلص من مخاوفها ، وأخذت تستعرض فى ذاكرتها كل التجارب التى مرت بها ،وتستعيد فى نفسها كيف أتمت رسالتها ، وكيف أنقذت حبيبها أوليفييه ،وكان يغمرها نوع من السرور لا يوصف . لقد كانت تحدث نفسها : « أنا التى صنعت هذا » . ثم تعود فتلوم نفسها ، إذ تشعر بشيء من الكبرياء فتقول : « لو كنت وحدى لما استطعت شيئا ، إن الله كان معى » .

وتشكر الله الذى منحها الحياة حتى أتمت مهمتها . كان قلبها ينقبض لشعورها بأن عليها أن ترحل ، لكنها لا تجرؤ على التذمر خشية أن تبدو ناكرة للجميل أمام خالقها الذى كان فى استطاعته أن يصطفيها إلى جواره قبل ذلك بكثير . ترى ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنها رحلت منذ عام مضى ؟ .

تنهدت عندما تذكرت ذلك ، وخضعت لإرادة الله شاكرة جميله . وبالرغم من الضيق الذي كان يعتريها لم نتكن تشكو أبدا إلا حينها تستغرق فى نوم عميق تئن خلاله كطفل صغير . كانت تنتظر إلى الناس والأشياء بابتسامة مستسلمة ، وكانت مجرد رؤيتها لأوليفييه تسبب لها فرحا دائما . كانت تحرك شفيتها وهى تناديه دون أن تنطق طويلا فى صمت ، وأخيرا كانت تقوم لتضع رأسه بين يديها ، وتقول له :

– أوليفييه ! أوليفييه !

وتنتزع من حول جيدها سلسلة فى آخرها ايقونة وتطوق بها عنق أخيها . وأوصت الجميع بأخيها خيرا . قسيسها الذى تعترف له وطبيبها وكل من تعرفه . كان واضحا أنها لم تعد تعيش إلا من خلال حياة أخيها وأنها على وشك الموت .

كانت تلجأ إلى هذه الحياة ، كما لو كانت آخر جزيرة تأوى إليها . وكانت تأخذها أحيانا نشوة صوفية من الإيمان والحنان ، فلا تعود تشعر بآلامها ، ويتحول الحزن لديها إلى سرور إلهى كان يظهر كالنور فى عينيها وعلى فمها وهى تردد قائلة

– أنا سعيدة .

ويسيطر عليها نوع من الفتور . كانت فى لحظاتها الأخيرة قبل أن تفقد وعيها تحرك شفتيها ، فيعرف أنها كانت تتلو شيئا . ويقترب أوليفييه من فراشها ويميل نحوها . كانت ماتزال تعرفه ، فتبتسم له ابتسامة خفيفة وتظل شفتاها تتحركان فيما عيناها مغروقتان بالدموع ، وعندئذ لا يستطيع أحد أن يسمع ماتريد أن تقول ، ولكن أوليفييه يستطيع أن يلتقط من فمها همسا لكلمات أغنية قديمة طالما أحباها ، طالما غنتها هى له : «سأعود أيها المحبوب . . سأعود . »

وعاد إليها إغماؤها . . رحلت !

كانت أنطوانيت ـ دون أن تدرى ـ قد أنشأت مع الكثير من الغرباء صلة من الود العميق ، وهذا حدث لها فى المنزل التى كانت تسكن فيه على الرغم من جهلها مجرد أسماء جيرانها . وهكذا تلقى أوليفييه من أناس لايعرفهم كثيرا من دلائل المواساة . ولم يكن موكب جنازة أنطوانيت مهجورا كما حدث لجنازة أمها . بل تبعها كثيرون إلى مقرها الأخير ، كانوا من الأصدقاء أو من زملاء أوليفييه أو من الأسر التى عرفتها أنطوانيت عن طريق إعطاء الدروس ، أو كانوا مجرد أناس مرت بهم صامتة دون أن تخبرهم هى بشىء عن حياتها ودون أن يحاولوا أن يعرفوا شيئا ، وإن كانوا معجبين سرا بثقافتها . وشيعها كذلك بعض الفقراء ، والخدم الذين كانت تقوم بمساعدتهم وبعض صغار التجار فى الحى . أما أوليفييه فقد اصطحبته السيدة ناتان ليلة وفاة أخته رغما عنه إلى منزلها ؛ ولهذا انتزعته عنوة من بين أحزانه .

كانت تلك هى الفترة الوحيدة فى حياته التى يستطيع فيها أن يقاوم مصيبة كهذه الفترة الوحيدة التى لم يسمح له فيها بأن يستسلم ليأسه استسلاما كاملا . كان أوليفييه قد بدأ صفحة جديدة من حياته ، وبالرغم من مصيبته فقد سار مع التيار كواحد من أفراد مجتمعه الصغير . كانت أعماله ومشاغل مدرسته وحمى تفكيره الذهنى ونضاله من أجل الحياة ، كلها تمنعه من الانطواء على نفسه ، لم يكن يستطيع الانفراد بنفسه ، كان ذلك يؤلمه ، ولكن كان فيه إنقاذ له ، ولو كان موت أنطوانيت قد حدث قبل ذلك العام أو بعده بأعوام لكان فيه نهاية أوليفييه .

ومع ذلك فقد اختلى بنفسه مع ذكرى أخته ما استطاع وتألم ؛ لأنه لم يستطع الاحتفاظ بالمسكن الذى عاش فيه مع شقيقته ، فلم يكن يملك من

المال مايسمح له بذلك، كان يأمل من الذين يبدون اهتمامهم به أن يقدروا مبلغ حزنه ، لأنه لايستطيع الإبقاء على مايختص بشقيقته ، ولكن أحدا لم يكن ليقدر موقفه ، واستأجر غرفة سطح من مال استدان بعضه وجمع البعض الأخر من إعطاء الدروس . وفى هذه الغرفة كرس كل ما استطاع الاحتفاظ به من أثاث أخته : سريرها ، طاولتها ، المقعد الكبير الذى كانت تجلس عليه، ويجعل من ذكرياته محرابا يلجأ إليه كلما اشتد الحزن به . وظن أصدقاؤه أنه على علاقة غرامية ، على حين أنه كان يمكث فى غرفته ساعات طويلة ، وقد احتوى رأسه بين يديه وهو يحلم بأخته ، فقد كان من سوء حظه ألا يكون لديه أية صورة لها ، إلا صورة فوتوغرافية صغيرة وهى فى سن الطفولة ، أخذت لها وهى بجانبه . كان أوليفييه يتحدث إلى الصورة ويبكى: أين مكان صاحبتها الآن حتى لو كان في الطرف الآخر من الدنيا ؟ أينما كان مكانها ومهما كان الوصول إليها صعبا ، فكم كان يسعده أن ينطلق باحثا عنها بحماس لايقهر ، مهما كلفه السعى فى سبيلها ، حينئذ يكون على استعداد لأن يسير حافى القدمين مئات السنين ، إذا كانت كل خطوة تقربه من شقيقته كان على استعداد لذلك ولو كان أمله فى الوصول ضعيفا . لكن، لا أمل! فلم تكن هناك وسيلة للوصول إليها أبدا . ياللوحدة التى أصبح يعيش فيها . أصبح عديم الحيلة كالطفل الصغير تلعب به أمواج الحياة ، فلم تعد له أخت تحبه وتنصحه وتواسيه . فمن حظ المرء أن يعرف ولو مرة فى العمر ألفة قلب صديق ، ألفة لا حدود لها ، هو قد عرف أسمى سعادة فى الحياة ، إلا أنها سعادة تجعله يعيش بقية عمرة شقيا .

وليس هناك أقسى على النفس من أن يتذكر الإنسان وهو فى غمرة شقائه أياما سعيدة مرت به . وأكبر كارثة بالنسبة للنفوس الضعيفة الرقيقة أن تكون قد عرفت السعادة الكاملة مرة فى حياتها ، ولكن مهما يكن الألم الذى

يضجع الإنسان وهو فى مقتبل عمره فى عزيز لديه ، فإن ذلك يكون أخف وقعا على النفس مما لوحدث فى سن متأخرة بعد أن تكون الحياة قد نضب معينها ، كان أوليفييه مايزال صغيرا ، وبالرغم من ميله الفطرى إلى التشاؤم وبالرغم من سوء الحظ الذى لازمه ، فقد كان فى حاجة إلى أن يعيش ، ويبدو أن أنطوانيت وهى تودع الحياة قد بثت شيئا من روحها فى نفس أخيها . أما أوليفييه فقد آمن بهذه الحقيقة ، وهو إن لم يكن متدينا كشقيقته فإنه كان يشعر شعورا عاما بأن أخته لم تمت تماما ، وإنما انتقلت حياتها إلى جوار الله كما وعدت . فهناك اعتقاد يسود مقاطعة « بريتانيا » بأن الذين يموتون فى الشباب لايموتون وإنما يظلون ، وهكذا ظلت أنطوانيت تعيش وتنمو إلى جانب أوليفييه .

أخذ أوليفييه يقرأ ماتبقى من الأوراق التى تركتها أخته . فقد شاء سوء الحظ أن تكون قد أحرقت معظم ما كان لديها من أوراق ، ومع ذلك لم تكن من أولئك اللواتى تَعَوّدْنَ تسجيل مشاعرهن الشخصية ، بل كان وجهها يحمر خجلا إذا حدث أن كشف الناس عن أفكارها . لم يكن لديها سوى دفتر صغير للمذكرات التى كان من الصعب علي غيرها أن يفهم ماجاء به من رموز . أجندة صغيرة دونت فيها ـ دون تفسيرها ـ بعض التواريخ وبعض الأحداث اليومية الصغيرة التى أدخلت عليها السرور تتيح لنفسها الفرصة لكى تعيشها مرة أخرى . وأما معظم هذه التواريخ فكانت تعود إلى أحداث من حياة أوليفييه ، كانت أنطوانيت قد احتفظت بكل رسائله دون أن تفقد واحدة منها . ولكن كان أوليفييه أقل منها اهتماما بحفظ الرسائل ، فأضاع معظم ماوصله منها ، فقد كان يعتقد بأنه سيحتفظ بأخته إلى الأبد ولا حاجة إلى الرسائل . وقد كان يخيل إليه أن هذا النبع الحبيب من الحنان لاينضب ، وظن أنه يستطيع دائما أن يروى ظمأ شفتيه وقلبه من هذا النبع ،

إلا أنه كان عديم التبصر، فلم يحافظ على مامنحته أخته من حب ، وأصبح يتمنى لو يحصل على قطرات صغيرة منه . وكم تأثر عندما عثر بين صفحات من كتاب الشعر كان ملكا لأخته ـ على هذه الكلمات مكتوبة على ورقة بالية : « أوليفييه . . ياأوليفييه الحبيب ! » .

كاد يغمى عليه، وأخذ ينتحب وهو يضغط بشفتيه على شفتى أخته اللتين لا يراهما إلا فى الخيال ، وكانتا تتحدثان مع السيد فى العالم الآخر . ومنذ ذلك الحين وهو يبحث فى كتبها، لعلها تكون قد أودعتها سرا آخر. وعثر على مسودة رسالة منها لكريستوف وعلم القصة الصامتة التى كانت تنمو لدى أخته . واستطاع لأول مرة أن يقتحم حياتها العاطفية التى كان يجهلها والتى لم يحاول معرفتها من قبل ، وتذكر الأيام القلقة التى عاشتها بعد أن هجرها هو حين كانت تمدد ذراعها نحو الصديق المجهول، لم تكن قد صرحت له أبدا بأنها سبق أن التقت بكريستوف ، إلا أنه اكتشف من سطور الرسالةأنهما التقيا فعلا منذ عهد قريب فى ألمانيا ، وفهم أن كريستوف عامل أنطوانيت معاملة كريمة فى إحدى المناسبات التى لم يعرف أوليفييه تفاصيلها عندما نشأت عاطفة أنطوانيت نحو كريستوف وظلت محتفظة بسرها حتى النهاية .

كان أوليفييه يحب كريستوف من أجل فنه فحسب ، ثم فجأة أصبح حبه له مشخصًا ، حبا لايوصف ؛ لأن أنطوانيت تحبه - لقد خيل إليه أنه يقتفى أثره ، فقد اختفى كريستوف من باريس الهائلة بعد فشله فى حفل موسيقى كان قد أقامه ، واعتزل الناس ولم يعد يهتم به أحد .

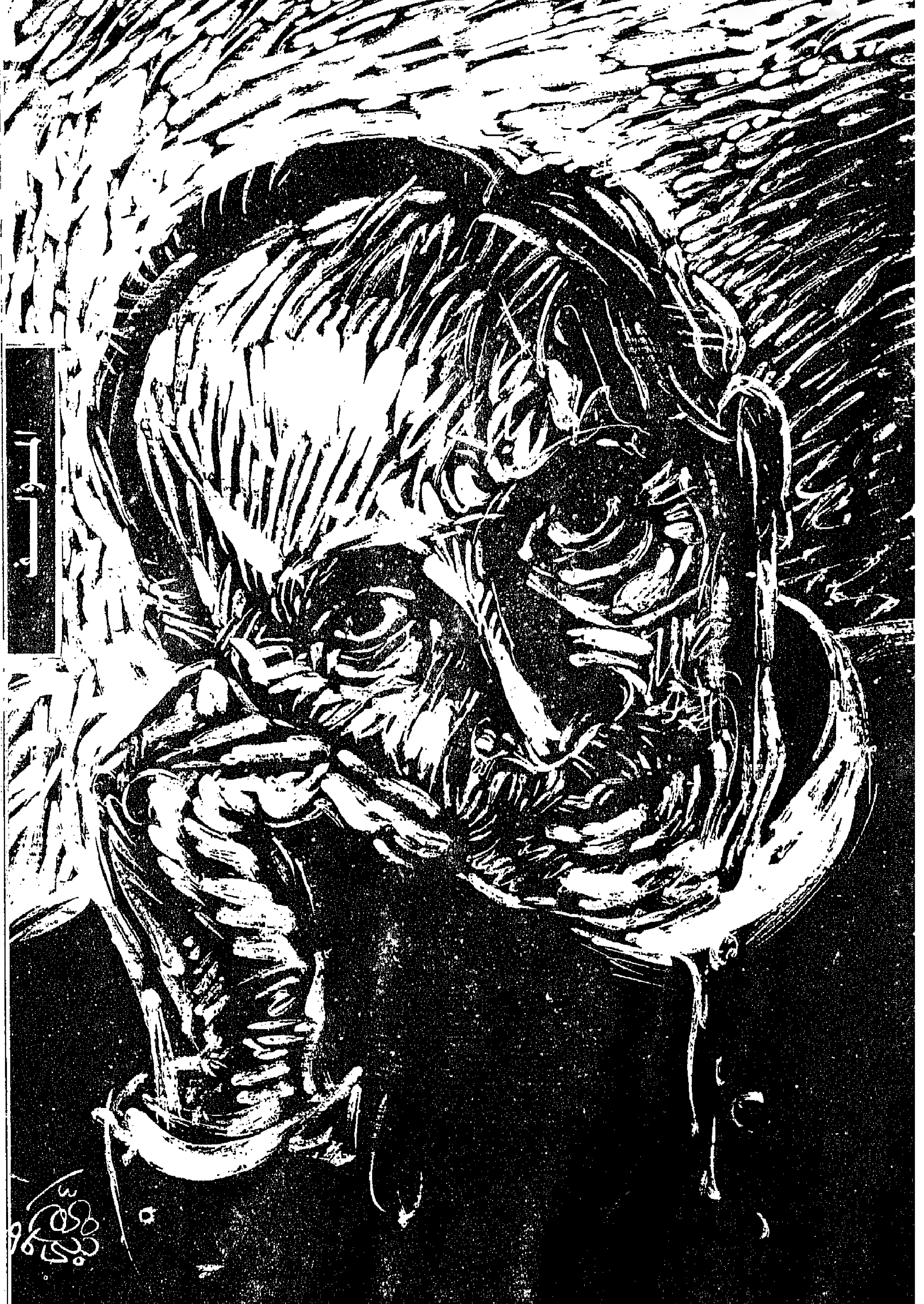
مرت شهور وشاءت الصدفة ان يلتقى أوليفييه بكريستوف فى الطريق . كان كريستوف أصفر الوجه بعد أن هزله المرض لم يشف منه إلا أخيرا ، إلا

أن أوليفييه لم يجد فى نفسه الشجاعة الكافية ليستوقفه فتبعه حتى منزله . ثم فكر من أن يكتب إليه إلا أنه لم يستطع تنفيذ ذلك .

ماذا يكتب اليه ؟ وهل كان وحده ؟إن أخته إلى جانبه ، حبها وطهرها كاناقد انتقلا إليه . ومجرد التفكير فى أن أخته أحبت كريستوف كان يجعله خجلا أمامه كما لو كان هو أنطوانيت ، ومع ذلك كم كان يود لو تحدث إليه عنها . لكنه لم يستطع . كان سرها يلجم لسانه .

كان أوليفييه يحاول أن يلتقى بكريستوف ويذهب إليه فى كل مكان يمكن أن يجده فيه ، وكان يشتعل رغبة فى أن يمد إليه يده مصافحا ، ولكن ما إن يلمحه حتى يتوارى منه خشية أن يراه .

وأخيرا ،ذات مساء فى صالون أحد الأصدقاء ، انتبه إليه كربستوف ، كان أوليفييه يقف بعيدا دون آن يقول شيئا ، إلا أنه كان يراقبه . كما لو أن أنطوانيت كانت معه فى تلك الليلة يراها ، يراها كريستوف فى عيني أخيها ، وكانت الصورة التى بعثت فجأة هى التى جعلته يخترق الصالون؛ ليتجه مباشرة نحو الرسول المجهول الذى يحمل إليه تحية حزينة رقيقة من الروح التى ذهبت إلى عالم السعادة .



رومان رولان ..
والتحليل النفسية للشخصيات

ولد رومان رولان بمنطقة كلا ميس (ينافر) عام ١٨٦٦ حيث داوم على دراسته التى استكملها بليسيه لوى لوجروند ثم بالمدرسة العليا عام ١٨٨٦ وفيها تخصص فى الفلسفة، ولكنه نال الأجريجاسيون فى التاريخ عام ١٨٨٩ . حصل على منحة بمدرسة روما الفرنسية، وأعد رسالة عن الفلسفة والتاريخ وعلاقتهما بتولستوى . قام بتدريس تاريخ الفن والدراما بالسوربون ، ونشر دراسات عن المشاهير : « بتهوفن » و « مايكل انجلو » «هاندل » و« تولسترى » . بعدها كتب عددا من المسرحيات الثورية (الذئاب) ١٨٩٨ (انتصار العقل) ١٨٩٩ (دانتون) ١٩٠٠ (١٤ يوليو) ١٩٠٢ (لعبة الحب والموت) ١٩٢٥ (عيد الفصح الوردى) ١٩٢٦ (ليونيه) ١٩٢٨ (روبسبير) ١٩٣٩ . ومع هذا لم يعرف ككاتب مسرحى إلا بعد أن بلغت رواياته شهرة اكبر ، وخاصة بعد روايته « جان كريستوف » ذات الأجزاء العشرة والتى فازت بجائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى ، ثم «كولاس بروبنون)

انتقل رومان رولان للعمل بوكالة مسجونى الحرب بسويسرا عام ١٩١٤ ، فأصدر جريدة الحرب، وكتب عدة مقالات ضد النازية تتسم بالشجاعة والشرف . وفاز بجائزة نوبل للآداب عام ١٩١٦ . كتب عام ١٩٢٢ وحتى عام ١٩٣٣ (النفس المطئنة) واستكمل فى أربعة مجلدات دراسته عن بتهوفن ، كما كتب عن (غاندى) و(الهند) فأطلق عليه معاصروه « مثقف اليسار » . التقى بغاندى وجوركى ونظم مؤتمرات دولية مناهضة للحرب فى آمستردام ، ورفض ميدالية جوته التى تمنحها حكومة هتلر .

عاد فى عام ١٩٣٧ إلى موطنه الأصلى ؛ ليقضى آخر سنوات عمره حيث كتب مذكراته الشاعرية عام ١٩٤٢ بعنوان (الرحلة الداخلية) وفيها تذكر صديقيه شارب بيجى وبول كلوديل .

توفى رومان رولان عام ١٩٤٤ عن ثمانية وسبعين عاماً .

أما إنتاجه المتنوع فقد تميز بالالتزام الفكرى الذى يعبر عن صاحبه فى كل الظروف ، وبدا هذا واضحا فى (مذكراته) . ولأنه كان معاصرا للفيلسوف الشهير برجسون أراد هو الآخر أن يبحث عن « الحقيقة الحية» رافضا أن يكون هذا البحث مجرد أحلام . .

ورغم أفكاره الجادة الملتزمة العميقة فإنه لم يتخل أبدا عن شاعرية التعبير فى أسلوبه الذى يكشف عن الصدق ، مع نفسه وتجاه الآخرين . فكل ماكان يسعى إليه هو أن يعرف ، وأن يبلغ مايعرفه لمن لايعرف ، بحب وأخلاص . .

ابتدع رومان رولان شخصية (جان - كريستوف) كالنغمة الدالة التي تتردد فى كل الألحان ، ألحانة أو رواياته ، وهى الشخصية التى دعته لإطلاق تعبير « الرواية النهر » علي هذا النوع من الروايات ، ربما لأنها شخصية تتمدد فى كل رواياته علي الرغم من أن كل رواية لها موضوعها المستقل وشخصياتها الخاصة وأحداثها المختلفة . وتعتبر « الرواية النهر » تعبيراً موسيقيًّا ايضا يصلح للسيمفونيات البطولية ، فقد كتب رومان رولان عشر روايات هى : (الفجر) ١٩٠٤ (الصباح) ١٩٠٤ (المراهق) ١٩٠٥ (الثائرة) ١٩٠٧ (السوق على الطريق) ١٩٠٨ (أنطوانيت) ١٩٠٨ (فى البيت) ١٩٠٩ (الصديقات) ١٩١٠ (التنزه الحار) ١٩١١ (النهار الجديد) ١٩١٢ . وكلها تنتمى إلى (جان كريستوف) كنوع من العشارية ،

كما نقول : تنائية وثلاثية ورباعية وسباعية وهكذا مثل ثلاثية نجيب محفوظ ورباعية داريل ، وهو نوع فريد قدمه رومان رولان وحده علي مدى التاريخ الأدبى ، فهو مختلف تماما عن أجزاء الرواية الواحدة المتصلة أيا كان عدد أجزائها مثلما فعل مارسيل بروست فى عمله الضخم (فى البحث عن الزمن الضائع) والمكون من خمسة عشر جزءا بسبعة عناوين رئيسية مختلفة .

وقد أراد رولان أن يصور عذاب الأبطال ؛ ليصور فى النهاية عصرا بأكمله وكأنه متحف يضم كل محتويات العصر من التجارب الإنسانية فى مراحل الطفولة والصبا وفى حالات الحب والصداقة ، فى إطار من الأخلاق والتضحية وإنكار الذات ، سواء عن طريق الحب الأخوى أو عطاء الأمومة ، وفى هذا يتم الصدام بين المثالية والواقعية على مستوى الأحداث والشخصيات كما يتم الصدام بين الرومانسية والغنائية على مستوى أسلوب العرض الأدبى والمذهبى .

ولقد ظهرت جلية ذكريات الكاتب الشخصية وهى تنخلع إما عمدا أولا إرادية على الشخصيات الروائية .

كما ظهرت واضحة جلية العلاقة بين الكائنات والأشياء من خلال الإرث التتابعى أو تواصل الأجيال كنهر داخلى كما الماء المتدفق فى النهر الجارى . فهو يرى أن جان كريستوف هو نهر الراين الذى يصب فى البحر، وهى ليست تعبيرات خيالية ومجازية ، ولكنها تشكل أصوات النهر الداخلى . فنهر الراين يجرى أحيانا فى القاع ، قاع البيت ومن النافذة وعلى الدرج كالحديقة المتحركة .

وأخيرا ظهر واضحا جليا هذا المزيج السعيد بين الفن والملاحظة ، فالموسيقا عنده ليست فى الألحان وحدها ،فهى فى الطبيعة قبل أى شىء :

فى الغابات ، فى الجبال ، فى السهول، وفى بطاقات الطفولة والشباب ؛ ولهذا نجد البيانو من الأثاث الدائم ، والعزف من الهوايات الأساسية .

فى هذا الجو ينشغل رولان بالعدالة الضائعة أو الظلم الإنسانى ، والاجتماعى، فيتعذب ليس لعذاب أبطاله ، ولكن كعذابهم ، ويتألم ليس لآلامهم ولكن كآلامهم .

وفى هذا الجو نقف على صعود الأبطال كما نقف على هبوطهم ، سواء عن طريق الحب الأول أو الأزمة الاقتصادية الأولى أو الفشل الدراسى الأول ، وهكذا

وفى هذا الجو أخيرا نلمس النقاء المطلق ، والسذاجة البكر ، والعبقرية المبكرة ، والنبل الأصيل، ولكنها السعادة بغير غد .

وكم من الحداد وسط كم من الأعياد . وهواء نقى ، وعصافير طليقة ، وصوت الريح ، وركن فى السماء الزرقاء وهى تضحك أمام النافذة ، وشريط من أشعة الشمس يفترش الفراش من خلال الستائر المسدلة . عالم من الطفولة الأسرية ، غلالة تتمزق ، تكشف عن روح الطبيعة السكرى تلك القوة ، سواء كانت مفيدة أو غير مفيدة لها مخاطرها . فالشمس لا توصف بأنها أخلاقية أو وليست أخلاقية ، إنها هى كما هى ، يكفى أنها تقهر الليل .

أما أنطوانيت فهى رواية تتضمن كل المكونات الحياتية والنفسية الأثيرة لدى رومان رولان : الأسرة الثرية التى يتسبب عائلها فى تحقيق الرفاهية لأسرته ، زوجه وانبه وابنه ، ثم فجأة يتسبب أيضا فى قهر هذه الأسرة بعد أن يغامر بماله ، تضيع الثروة نتيجة للدخول فى متاهات الأطماع ، وتضيع حياته نتيجة لليأس والانتحار فى نهاية الأمر ، فلا تجد الأسرة غير الهروب من

المدينة الصغيرة التى كان يعيش فيها أفرادها منعمين بالمال والجاه والسمعة الطيبة ، وتتجه الأسرة إلى باريس قلب العالم الصاخب حيث لا رأفة ولا رحمة ، عجلات الحياة تدور وتدرس من لايدور معها . وبعد أن تفجع الزوجة فى شقيقتها أقرب الناس إليها ، وبعد أن تفجع فى الحياة ذاتها ترحل وهى آسفة على الابنة الفتاة والابن الصبى غير مطئنة على حياتهما من بعدها ، وتبدأ الابنة رحلة الشقاء ، تتحمل العبء وحدها ، عبء إعاشة نفسها وعبء إعاشة واستكمال دراسة شقيقها . وبعد القصر المنيف فى المدينة ، والشقة المتواضعة فى باريس ، تضطر أنطوانيت (وهو أيضا اسم الرواية إلى الانتقال إلى شقة أكثر تواضعًا فوق أحد الأسطح ، ومع هذا بدأت الحياة تبتسم لهما واقترب الابن من نهاية المطاف ودق قلب الفتاة . وفجأة تمرض الفتاة مرضا مزمنا وتبدأ صحتها فى الانحدار ، وتقتحم المخاوف على شقيقها تعتصرها أكثر مما يعتصرها المرض ، وتفيض روحها وهى توصى الجميع على الشقيق الذى لم يبدأ رحلة الاستقرار بعد .

وفى هذه الرواية الإنسانية التى تصور صعود وهبوط الإنسان ، يلجأ رولان إلى التحليل النفسى للشخصيات بداية من الأب الثرى والأم شديدة الجمال والابنة الذكية الطيبة والابن الساذج الانعزالى ، وحولهم جميعا نماذج المجتمع الغريبة والسائدة ، ومن الفجاجة والرذالة والقبح والنذالة إلى العطف والكرم والمؤازرة ، وهكذا كل النماذج السيئة والطيبة تجتمع فى مجتمع واحد كبير يبتلع كل شىء وكل البشر . .

وهكذا ركز رولان على شخصية أنطوانيت (التى تحمل الرواية اسمها) على اعتبار أنها البطلة الحقيقية المحركة للأحداث والتى تحركت بها وحركتها الأحداث أيضا . ثم يتناول الابن بكثير من التحليل أيضا ، على اعتبار أنه

القطب الثانى فى فلك حياة هذه الأسرة المنكوبة - ثم يتعرض للأب وهو البداية الطبيعية لمسيرة تلك الأسرة ،وهو سبب رغدها ونكبتها فى الوقت نفسه ، لأنه مظلوم فيما حدث ، فقد خدع وكان هدفه نبيلا ، ودفع ثمن خطئه حياته ، ولكنه فى الوقت نفسه أضر بأسرته وأساء إليها . وأخيرا يتعرض رولان بالتحليل لتلك المرأة الرائعة الجمال شديدة الحساسية التى بكت زوجها وتفرغت لولديها وعانت من أجلهما حتى ضعف القلب ولم يعد يتحمل الانفعالات والصدمات والمآسى ؛ لتسلم الراية للابنة التى قامت قدر مااستطاعت بدور الأم لشقيقها ، وكافحت أكثر وعانت أكثر حتى ثقل بها الحمل وأثقلها وراحت ضحية التضحية . .

ومع كل هه المآسى لانحس بالميلودرامية فى هذه الرواية ؛ لأنها تقوم على أحداث متتابعة بحيث تؤدى المقدمات إلى النتائج كما تعلم رولان من الفلسفة ، بلا صدف ولا مفاجآت ولا افتعال ، فكل شىء خاضع للمنطق، وكل شىء محكوم بالظروف . ولأن رولان محلل دارس أيضا لم نلحظ أى خلل فى بناء الشخصيات الرئيسية ولاحتى السخصيات الثانوية العابرة . .

ومع أن الأحداث كثيرة فإنها غير متشعبة وغير مستفيضة ، بل مركزة ومحددة . كما أن الأسلوب يتميز ـ رغم كم السواد والحزن ـ بالإشراق والبريق واللمعان ، فهو أسلوب يعتمد على الصورة الوصفية وتكوين مناخ طبيعى يربط بين الطبيعة والإنسان والأشياء وكافة الكائنات الحية من زهور وطيور إلى جانب الشمس والقمر والنجوم والسحب والأمطار . .

لقد استطاع رومان رولان فى هذه الرواية أن يضع الحياة فى كتاب أو أن

يجعل من الحياة كتابا مفتوحا . ولعلها تكون قد ساهمت مع غيرها من الروايات فى حصوله على جائزة نوبل للآداب فى عام ١٩١٥ بعد كتابة هذه الرواية (أنطوانيت) بسبع سنوات ، تلك الرواية الفرنسية العالمية معا !

فتحى العشرى



فتحى العشرى

- تخرج فى كلية الآداب - جامعة القاهرة - قسم اللغة الفرنسية وآدابها .

- عمل منذ تخرجه بجريدة الأهرام محرراً بالقسم الأدبى ،ثم نائباً لرئيس القسم، ثم رئيساً لقسم السينما ومشرفاً على صفحة المسرح . أصبح مسئولاً عن لقاءات واتصالات نجيب محفوظ ومتحدثاً رسمياً له منذ فوزه بجائزة نوبل عام ١٩٨٨ .

- أعد العديد من البرامج الإذاعية والتليفزيونية وقدم بعضها .

- رأس تحرير سلسلة الرواية العالمية ، وكان مديرا لتحرير مجلات الفيصل ، وزينة ، وكوكب الشرق .

- سكرتير عام جمعية محمد حسين هيكل ، وأمين عام جمعية المسرح ، ونائب رئيس جمعية كتاب ونقاد المسرح .

- عضو اتحاد كتاب مصر ، عضو نقابة الصحفين ، عضو نقابة السينمائيين، عضو نقابة المهن التمثيلية ، عضو جمعية كتاب ونقاد المسرح ، عضو الأمانة الدائمة لجوائز المسرح القومية ، عضو لجنة المسرح بالمجلس الأعلى للثقافة ، عضو لجنة إعداد بانوراما المسرح المصرى .

- شارك فى العديد من المهرجانات العربية والعالمية فى فرنسا ، وانجلترا، وألمانيا ، و النمسا ، وإسبانيا ، وروسيا ، والصين ، والأردن ، ولبنان ، وسوريا ، و السوذان ، والعراق ، والسعودية ، والبحرين ، وقطر ، والسويد . .

ـ له أكثر من عشرين كتاباً بين الترجمة والتأليف : مهاجر بريسبان – الآلة الجهنمية – انفعالات – ليلة القتلة – دون كيشوت – الجحيم – صحراء الحب – ليلة القدر – أزمة إنسان العصر – كهف الحكيم – دقات المسرح – مفكرون لكل العصور – قمم عربية وغربية –ألوان العصر – نبضات المسرح – فصل فى الكونغو – كوكتو والسينما – المعقول واللامعقول – دعوة للقراءة . .

تصميم
ورسوم محمد حجي

2